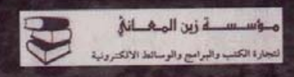


د. علي الوردي... مجالسه ومعاركه الفكرية



سلام الشماع



مركز الناقد الثقافي
مؤسسة ثقافية فنية مستقلة

أسس عام 2007 بمدينة دمشق .

رسالة المركز :

- أن يكون عربياً، مسلماً، إنسانياً، عالمياً، يشع بحروفه الفاهمة حواراً، وتلاقياً، وتعارفاً، وحكمة.
- محاولة جادة للخروج من القوالب الجاهزة والأفكار المعتادة والقناعات المحنطة .
- نقلة نوعية من اللاإدراك إلى الإدراك بلوغاً إلى العمل على أن يصبح أي تعاهد واستيثاق من غائب مغيب إلى حاضر فاعل.
- الناقد الثقافي لن يكون حبيس منظومة دائرية أو حلقة فكرية مفرغة بل هو إسعاف وإنعاش للفكر والوجدان.

مجالس الوردي

الدكتور علي الوردي، مجالسه ومعاركه الفكرية

سلام الشماع

الطبعة الأولى ٢٠١٠



المدير العام
علاء الدين آل رشي

المدير التنفيذي
كوثر البقاعي

الجمهورية العربية السورية- دمشق- شارع الباكستان- بناء واحة عرنوس- ط٤-رقم المكتب ١
00963-991547801
www.alnaqedcenter.com
للتواصل:
kawthar@alnaqedcenter.com
alaa@alnaqedcenetr.com

مقدمة بقلم سلام الشماع

كان مقدّرا ًلهذا الكتاب أن يصدر قبل ثلاثة عشر سنة ،في الذكرى الثانية لرحيل العلامة الدكتور علي الوردي، لكني انشغلت عنه ولم أجد أن الوقت كان مناسباً، على الرغم من أن كتابي(من وحي الثمانين) صدر وحظي باهتمام القراء المتعطشين إلى كل ما قاله الوردي.

واليوم ،سنحت لي الفرصة وأنا في المنامة أن أتفرغ لهذا الكتاب، خصوصاً عندما وجدت الحراك الثقافي في البحرين كبيراً، وأن الوردي معروف بنحو كبير بين الأوساط الثقافية والفكرية وحتى بين عامة الناس في هذا البلد الناهض، وأن الأجواء كلها تشجع على الكتابة والتأليف، فضلا ًعن أن كتابي(من وحي الثمانين) الذي أصدرت طبعته الثانية في بيروت نفد من الأسواق في مدة قياسية وطلبت مني دور نشر إصدار طبعة مطورة ثالثة منه، وبعد تجربة خضتها مع الصديق الأديب والناقد الدكتور حسين سرمك في تأليف كتاب(تحليل شخصية الوردي)الذي نعتزم دفعه للطبع، وكتابة مسلسل تلفزيوني عن حياة الوردي بثلاثين حلقة.

قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

عنونت الأول بعنوان (المجالس مدارس)،

وضمنت القسم الثاني مجموعة من الحوارات التي كنت أجريتها مع الوردي ونشرتها في عدد من صحف العراق، وعثرت على حوار في مجلة (آفاق عربية) ضممته إلى الحوارات لأهمية ما جاء فيه.

أما القسم الثالث، فقد ضممت إليه مجموعة من المواضيع منها ملخص عن الديمقراطية في الإسلام استللته من كتاب (مهزلة العقل البشري) لكي يمكن للقارئ مراجعته بسهولة عندما يقرأ الجدال بين الوردي والشيخ جلال الحنفي عن ديمقراطية الخلافة الراشدة، ويريد الاستزادة من الموضوع من دون الرجوع إلى الكتاب المذكور، وقد أضفت موضوعاً زودني به الزميل مهدي حمودي الأنصاري.

وأضفت للكتاب ملحقاً ضم مجموعة من الصور للوردي.

قد يكون هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارئ ،الآن ،أكثر إثارة من كتابي (من وحي الثمانين) و(تحليل شخصية الوردي)، فهو يصور حياة الوردي في مجالس بغداد وطريقة حواره وجداله ونقاشاته ومداوراته ومناوراته ومعاركه الفكرية، بما سيوثق جانباً مهماً من حياة هذا المفكر العظيم، ولكني سأظل أشعر أنه لن يكتمل إلا بحلقات ما زالت مفقودة قد أعثر عليها يوماً ليكون هذا

الكتاب مثيراً فعلا، ويجد فيه القارئ ما لا يجده في أي كتاب تناول الوردي..

لقد كتبت فصول هذا الكتاب في مطلع التسعينات من القرن الماضي، والعراق كان قد خرج تواً من حرب الخليج الثانية وما أعقبها من أحداث في محافظات العراق الجنوبية والشمالية ومحافظات الفرات الأوسط، وقد نشرت بعضها في جريدة الجمهورية وحجب بعضها الآخر عن النشر، وقد أضفت إلى هذه المواضيع في هذا الكتاب تعليقات تقرب بعض الأحداث إلى ذهن القارئ أو تفسرها وتقدم شرحاً لها.

وقد كتب التقديم للكتاب المفكر العراقي الراحل مدني صالح يوم كنت أنوي إصدار هذا الكتاب في عمان في تسعينات القرن الماضي مع كتاب آخر اقترح له المرحوم مدني صالح اسم (الوردي المرفوض)، لأني كنت أنوي أن أجمع فيه كل ما كتبه الوردي للصحافة العراقية ورفضت نشره، لكن مادة تلك الكتب كنت وضعتها في صندوق وأودعتها لدى الصديق الدكتور محمد الخاقاني، يوم كنت أعاني من ظرف خاص صعب، لكن الصندوق فقد من الصديق الخاقاني مع ما فقد له من حاجيات، وقد نعثر عليه يوماً فيضاف إلى المكتبة العراقية كتاب آخر مهم يلقي أضواءً جديدة على هذا الوردي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

إني إذ أنجز هذا الكتاب فإني أعكف على كتاب آخر ألمّ فيه ما تناثر مما كتبه الوردي ولم ينشر، مع التعليق عليه.

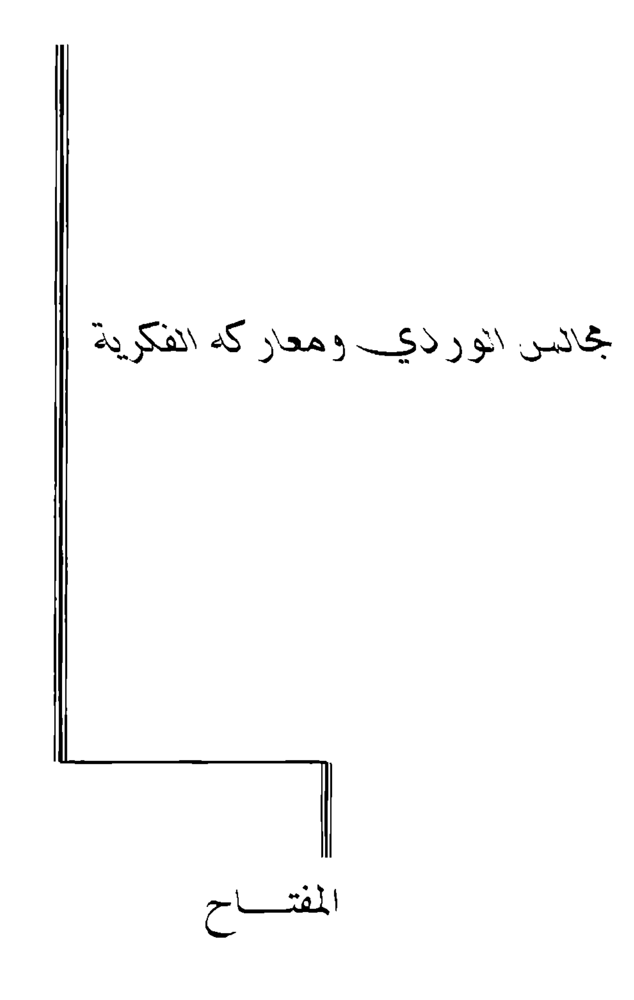
قد أكون قد وفقت في هذا الكتاب، ولكني ما زلت أجد أنه ينقصه الكثير مما لن يكمله إلا أوراق من الصندوق المفقود ووثائق ما زالت في مكتبتي في بغداد المحتلة، وقد يسعفني الحظ أن أضمّ ذلك كلّه إليه يوماً ليخرج هذا الكتاب بثوب جديد مستقبلاً.

قولوا :إن شاء الله..

سلام الشماع

مملكة البحرين- المنامة

١٢ ايار/ مايو ٢٠١٠



مجالس الوردي ومعاركه الفكرية

المفتـــاح

كل الذين مدحتهم خذلوني

بقلم

مدني صالح[1]

كتبت عن الوردي – أول ما ابتهجت بالكتابة عنه – فصلاً في كتابي ((أشكال وألوان))، الصادر قبل أربعين عاما في بغداد وكتبت عنه بعد ذلك مرتين في مجلة ((ألف باء)) [2] ومرة في جريدة القادسية[3] وذكرته علما صدرا رأسا في أول صفوف محدثي الضجّات في الثقافة العربية المعاصرة عندما كتب عن زكي نجيب محمود في جريدة الجمهورية[4] قبل عامين.. وكان هذا كله

1- ولد في مدينة هيت غربي العراق عام 1932، وعرفت نتاجاته الإبداعية في حقلي الفلسفة والنقد الشعري وأثارت جدلا كبيرا في الأوساط الأدبية. عمل أستاذا للفلسفة في كلية الآداب بجامعة بغداد منذ ستينيات القرن الماضي. أصدر العديد من المؤلفات الأدبية والفلسفية ممزوجة بطابع أكاديمي في مقدمتها «هذا هو السياب» و«هذا هو البياتي»، فضلا عن مؤلفاته التي اهتمت بالفلسفة الإسلامية والوجودية القديمة والحديثة. كما أصدر كتبا فلسفية مثل «الوجود» عام 1955 و«أشكال وألوان» عام 1956 و«مقامات مدني صالح» عام 1989، بالإضافة إلى كتب مسرحية وتحليل نقدي وفلسفي، وعدّ نفسه مصدر إشعاع للخير يمده بالشجاعة وعدم الخوف من أية سلطة سياسية حينذاك. أكمل صالح دراسته بعد تخرجه في جامعة بغداد في جامعة كامبريدج في بريطانيا..

2- مجلة أسبوعية كانت تصدر في بغداد عن دار الجماهير للصحافة التابعة لوزارة الإعلام العراقية حتى احتلالها في التاسع من نيسان 2003، وكان المؤلف من محرريها منذ أيلول 1974 حتى آخر لحظة.

3- جريدة سياسية يومية عامة كانت تنطق بلسان القوات المسلحة العراقية وتصدرها إلى جانب مجلة (حراس الوطن) وزارة الدفاع العراقية.

4- جريدة سياسية يومية عامة كانت تنطق بلسان الحكومة العراقية كانت تصدرها دار الجماهير للصحافة إلى جانب مجلة (ألف باء) وصحيفة انكليزية هي (بغداد اوبزرفر) وأخرى كردية اسمها (هاوكاري) وأخرى تركمانية.

في بغداد وجميعهم مؤرخ بتوثيق دقيق عند الصديق سلام الشماع الذي سألني في خريف ١٩٩٤ أن اكتب عن الوردي شيئا كي يجعله مقدمة لأشياء وردية كان قد اختارها الشماع وأعدّها للنشر في عمان[١] أو ربما لنشر مقالة مستقلة قائمة بذاتها هنا أو هناك اعتزازا بهذا الوردي وإنعاشا له ودفاعا عنه واحتجاجا منا نحن مريدوه على أفاعيل الزمن في آخر الدهر والدهر في آخر الزمن بهذا الوردي البحر القاموس المحيط العلم الصرح الجبل.. لكني توقفت ما أظهرت التردد واعتذرت ولم أكتب.. ذلك لأني خفت أن يخذلني الوردي ولم أشأ بعد تكامل التجربة أن يخذلني أحد بعد أن خذلني جميع الذين مدحتهم في الساحة الثقافية واحداً بعد واحد.. وأكتب عنه اليوم فإنه غير قادر بعد الموت أن يخذل أحداً.

هذا وإني كنت قبل هذا كله قد مهَّدت له تمهيداً يليق بالفاتح الثقافي المجدد الانقلابي الخطر، وفتحت له أبواب المدينة الآمنة العاصمة هيت[٢]، وفتحت له فيها جميع أبواب الدور والمقاهي والدواوين والبساتين وأعلنته جليساً مؤنساً ومحدثاً نافعاً ممتعاً ساحراً بالبلاغة وبالبيان وبالتجديد، ومن الجهابذة الفراهدة الأساطين، على جميع

1- انصرفت نيتي في ذلك الوقت وبتشجيع من الوردي إلى إصدار هذا الكتاب في العام 1994 وذهبت إلى عمان فعلاً لكن حالت حوائل دون إصداره فعدت إلى بغداد. ولم يتسن لي إصدار هذا الكتاب إلا الآن، ولم يسلمني المرحوم مدني صالح ما كتبه عن الوردي إلا بعد وفاة الوردي.

2- مدينة قديمة جدا غربي العراق تابعة لمحافظة الأنبار هي مسقط رأس مدني صالح.

تخوت المقاهي بين الشاقوفة إلى الدوارة، وبين الدوارة إلى الشاقوفة. وصدراً على أرقى الكرويتات [1] في الدواوين.

وأجريت - أول ما فعلت - على ألسنة القوم أسماء كتبه اللامعة المدهشة المثيرة التي منها (وعاظ السلاطين) و(مهزلة العقل البشري) و(خوارق اللاشعور) و(أسطورة الأدب الرفيع).. ولنؤجل قصة الوردي في هيت إلى وقت آخر. ولنبدأ الآن من جامعة بغداد فإنه إذا كان لكل مؤسسة فراهيدي ولقمان وأيوب فإنه فراهيدي جامعة بغداد المؤسس الزاهد ولقمانها الحليم الحكيم وأيوبها الصابر الصامد.

لم يسئ هذا الوردي إلى أحد من سكان جامعة بغداد، مسقط شهرته وازدهاره، كما لم يسئ قط إلى أحد من سكان مسقط رأسه في الكاظمية [2]، أو إلى أحد من سكان مسقط سكنه في الأعظمية [3]، أو إلى أحد من سكان مسقط آدم في هذي الأرض.

1- أرائك خشبية طويلة يجلس عليها رواد المقاهي والمجالس.

2- مدينة دينية ولد فيها الوردي ونشأ وترعرع، تقع شمالي بغداد وكانت في العصر العباسي مقابر للعرب أطلق عليها اسم (مقابر قريش)، وسميت باسمها الحالي بعد دفن الإمامين موسى بن جعفر الكاظم ومحمد بن علي الجواد حيث قامت حول مرقدهما مدينة عامرة، وفيها مدفن زبيدة زوجة الخليفة العباسي هرون الرشيد وابنها الأمين، كما أن أول من دفن فيها جعفر بن أبي جعفر المنصور باني بغداد ومؤسسها.

3- يفصل الأعظمية عن الكاظمية نهر دجلة، والأعظمية هي الرصافة التي كانت مقابر للأعاجم سميت مقبرة (الخيزران) التي هي أم الرشيد، وفيها قبر الإمام أبي حنيفة النعمان، وكانت فيها مقابر عدد كبير من الخلفاء العباسيين بين حديقة النعمان وساحة عنتر اليوم على مرمى حجر من المقبرة الملكية الحالية. وقد اشترى الوردي فيها بيتاً كان للجنرال نور الدين محمود أحد رؤساء الوزارات في العهد الملكي.

لم يتدافع قط على رتبة ولا على درجة ولا على منصب ولا على مكانة. يحضر عند التجديد في العمل والإبداع في الرأي، ويغيب عند التهاتر والتدافع والتغالب عند قسمة الغنائم والأسلاب في سوح التهريج والضحالة والتخريب الثقافي باسم الأصالة والابتكار.

والوردي عفّ الأظافر والأصابع والراحتين والكفين واليدين والعقل والضمير واللسان والشفتين والوجدان، كبير النفس بعيد الهمة، يحضر الإبداع والتجديد والابتكار والبناء الأكاديمي الرصين ويغيب عند الضحالة والتهريج والتخريب الأكاديمي الذريع والتدافع على عوائد الضحالة والتهريج والتخريب. إنه عنترة جامعة بغداد الذي يغني الإبداع ويغيب عند المغانم.

ولم يتكئ هذا الوردي إلا على عظامه التي لم يطعمها إلا من عروقه، ولم يسقها إلا من عروقه، ولم يقبض قط إلا كسباً حلالاً من عرق الجبين وحرائق الأعصاب في العمل الثقافي الأكاديمي الرصين.

ولم يكن سايكوسبيكوياً إنجليزياً منغلقاً يتعصب لدخول الثقافة الأوربية من باب الثقافة الإنجليزية.

ولم يكن سايكوسبيكوياً فرنسياً منغلقاً يتعصب لدخول الثقافة الأوربية من باب الثقافة الفرنسية.

ولم يكن سايكوسبيكوياً إنجليزياً فرنسياً منغلقاً يتعصب ليجمع بين الثقافة الإنجليزية والثقافة الفرنسية للدخول إلى الثقافة الأوربية.

ولم يكن سايكوسبيكوياً فرنسياً إنجليزياً مؤمركاً منغلقاً يتعصب لدخول الثقافة الأوروأمريكية من باب توحيد المداخل إلى ثقافة الأوروأمريكيين المتحدة تحت قبة السوق المشتركة والشركات المختلفة الجنسية وصناديق النقد الدولي في العالم الجديد عند نهاية تخوم التاريخ.

ولم يكن أزهرياً.. ولا نجفياً من النجف.. ولا زيتونياً من الزيتونة.. ولا قمياً من قم..

ولا من غزية إلا على الرشاد إذا رشدت غزية..

ولا من غزية أن تموت غزية.. لا بل.. لم يكن قط من غزية.. بل كان كاظمياً أعظمياً بغدادياً عراقياً عربياً ومؤرخاً اجتماعياً ثبتاً ضبطاً محققاً مدققاً إنسانياً يعبر الجسر. جسر الأئمة. من مسقط المسكن في الأعظمية إلى مسقط الرأس في الكاظمية عبوراً تاريخياً لا عصبية ولا خرافة فيه[1].. ويعبر الجسر – جسر الأئمة – نفسه في العودة من مسقط الرأس في الكاظمية إلى مسقط المسكن في الأعظمية عبوراً تاريخياً لا عصبية ولا خرافة فيه.. ولم يعبر

1- يقصد المرحوم مدني أن الوردي لم يكن طائفياً.

قط جسراً من جسور الله في أرضه إلا في التاريخ وداخل التاريخ ومن التاريخ إلى التاريخ: لا عصبية في هذا الوردي ولا تناقض ولا اضطراب ولا مأزق ولا صراع.. وكان الصراع في المأزق، والمأزق في الصراع قد كسر ظهر الفلسفة عند ابن خلدون في المقدمة وكسر معها الطريقة والمنهج والتاريخ بين التعليل والتفسير بأسباب من فعل الطبيعة وبين التعليل والتفسير بأسباب من إرادة الله.. إضافة إلى الثالثة التي هي التعليل والتفسير بأسباب من فعل الطبيعة وبأمر الله.. وهذه مسألة لا أخطر منها في قضايا الطريقة والمنهج فإنها جوهر مسائل التحليل والتركيب والتعليل ومعرفة المعلول بالعلة والعلة بالمعلول ونسغ جدلها الصاعد استقراء وتجريداً والنازل استدلالاً وتصحيحاً، من أفلاطون إلى غاليلو عبر أرسطو طاليس فإلى الثقافة المعاصرة عبر طلائع العلم والفكر الفلسفي الحديث الذي لولا التخرج لكان ابن خلدون على رأس داخليه: التخرج الذي كسر ظهر الفلسفة في مقدمة ابن خلدون ولا يزال كاسراً لظهر الثقافة العربية في العلم وفي الأدب وفي الفن، ولظهر الثقافة العربية كذلك في السياسة وفي الأخلاق وفي التشريع.

وإذا كان هذا التخرج والصراع بين خلاصات الفلسفة وبين قدسية النص والعصبية والتقليد قد ابتلعت فلسفة ابن خلدون كلها لم تُبق له منها إلا آثار العصبيات والتناقض والاضطراب فإنها لم

تنل شيئاً من التوجه المنهجي التاريخي الصحيح عند هذا الوردي الأعظمي الكاظمي البغدادي العراقي العربي المؤرخ الاجتماعي بلا عصبيات وبلا مآزق وبلا صراعات فتاكة مدمرة من أثر التخرج اللجوج.

وإذا كان المنهج قد ظل مكسور الظهر ثلاث مرات عند طه حسين: الأولى السايكسبيكوية وملاحقها ومضاعفات غموضها، والثانية باعتماد إصلاح البيان وسيلة لإصلاح البنيان، والثالثة بالتخرج الخلدوني بين العصبيات التي منها مسائل مستقبل الثقافة في مصر وغيرها من المسائل.. فإن الوردي لم يتبع إلا الطريقة النقدية بلا عصبيات..

ويظل الوردي ثاني اثنين مع طه حسين في أول صفوف محاولة تطهير الثقافة العربية عامة والثقافة المنهجية خاصة من أوبئة الملائية الاستشراقية الذميمة، والاستشراق الملائي اللعين.

وإذا كان طه حسين قد نادى بالتأسيس للثقافة من كلاسيك اللاتينيين والإغريق فإن الوردي لم يتبع إلا التأسيس للثقافة من إصلاح المجتمع الكاظمي الأعظمي البغدادي العراقي العربي العالمي الكوني بلا عصبيات وبلا مآزق من أثر التحرج بين القديم الماضي والحاضر الجديد، وتلك في نظري درجة أخرى للوردي في سُلَّم الفضائل المنهجية على طه حسين.. ومن الفضائل التي كانت

للوردي ولم تكن لطه حسين: فضيلة أخرى هي فضيلة التماسك من الداخل في الداخل ضد عوامل التفكك من داخل ومن خارج.. ومن التماسك الشخصي الذي كان للوردي ولم يكن لطه حسين هو أن الوردي لم يلهج بما لا يعرف ولم يأكل من مال ابن خلدون ويفاخر بديكارت الأمر الذي كان من مألوف التفاخر والمفاخرة عند طه حسين الذي كان يأكل من مال ابن خلدون وابن سلام ويفاخر بالطريقة وبالشك عند ديكارت وديكارت بعيد عنه على كل صعيد.

وكان أول ما عرفت الوردي عرفته أستاذاً قديراً حكيماً مجدداً ثورياً هادئاً وانقلابياً بلا ضجيج، ومن الجهابذة الفراهدة الأساطين:

وكان عقله أكبر من علمه..

وكان الحلم فيه أكبر من المال..

وكانت إدارته للموهبة أكبر من الموهبة فيه..

وكان يفضل بروتاغوراس على سقراط، ويفضل السفسطائيين على السقارطة.. ونتفق معه اليوم على هذا التفضيل كما كنا من قبل متفقين.. ونفضل أفلاطون على أرسطو في البناء الحضاري سياسة وأخلاقاً وتشريعاً، ونفضل أرسطو على أفلاطون في البناء الثقافي علماً وأدباً وفناً.. ونفضل شوبنهاور على هيجل.. ونفضل نيتشه على كانت.. ونجمع بين أرسطو وأفلاطون وداروين وهربرت

سبنسر ومورغان وفريدريك أنجلز وكارل ماركس وثورندايك وبافلوف وجون دوي وبيرتراند رسل وجان بول سارتر.. جمع توفيق لحل جميع أنواع الصراعات في مواجهة خطر اغتيال التطور على حدود اصطناع نهاية للتاريخ.. تحية منا نحن وباسم الوردي إلى جميع العشاق الفقراء المعاميد الذين يفضلون المعري على المتنبي، ويفضلون طرفة على زهير، ويفضلون عنترة على لبيد، ويفضلون الفارابي على ابن خلدون الذي أحسن ما تكون دراسته إذا ما كانت بين الكبيرين: الوردي وطه حسين..

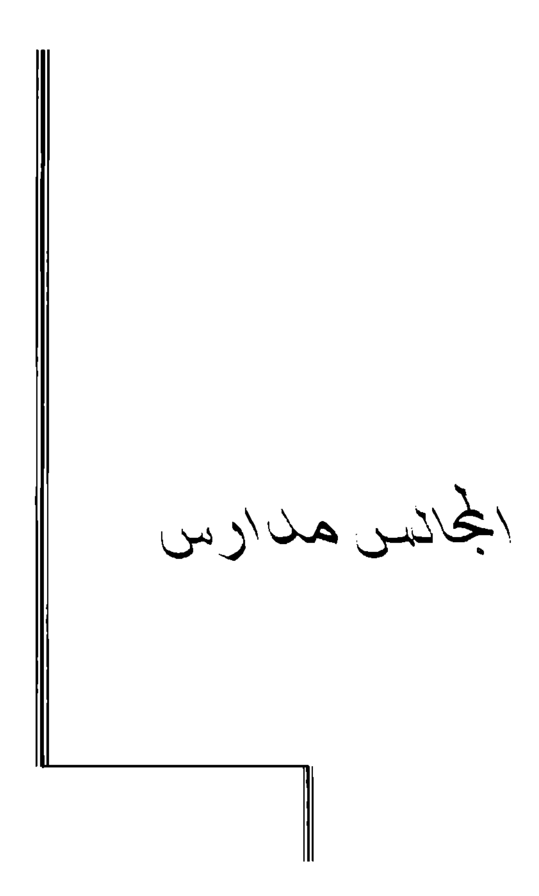
❖❖❖

وإذا كان المصريون قد استثمروا طه حسين في المجمع وفي الجامعة ثروة وطنية عزيزة يفاخرون بها الأمم، فإن العراقيين قد غفلوا عن الاعتزاز بهذا الوردي ثروة وطنية يفاخرون بها الأمم في المجمع وفي الجامعة.

وإذا كان عند الجامعيين والمجمعيين أشياء وأشياء يبررون بها غفلتهم عن الاعتزاز بهذه الثروة الوطنية الوردية التي لا أغلى منها ولا أبهى في تاريخ الفلسفة الاجتماعية منذ الفارابي والجاحظ فليس عند الثقافة الوطنية شيء من أشياء، وأشياء ومخاوف الجامعيين والمجمعيين وخوفهم من الحركة والتطور والجديد والتجديد والثقافة الوردية الأكاديمية النافعة الممتعة التي يقرأها الجميع ويحبها الجميع وتنفع الجميع وتصلح حال الجميع.

لم يشخص بعد الداء في المجتمع العراقي كما شخصه الوردي الكاظمي الأعظمي البغدادي العراقي العربي المؤرخ الاجتماعي التاريخي التطوري الإنساني داخل التاريخ عاماً وخاصاً ومن التاريخ إلى التاريخ في التاريخ[1].

1- كتب الدكتور طه جزاع الصحفي العراقي المعروف تلميذ مدني صالح تعليقاً على هذا التقديم ضمن ملحق (حوارات ومقالات) في هذا الكتاب.



المجالس مدارس



الوردي والحنفي في بيت مسكون[1]

أدركتُ في صباي قولاً مأثوراً كان يتداوله كبارُ السنِّ وهو «المجالس مدارس».. فقد كان في كلّ محلة أو بلدة مجلس أو بضعة مجالس تعقد في بعض البيوت ويرتادها أهل المحلة أو البلدة وتجري فيها أحاديث ومناقشات ومجادلات يستفيد منها الحاضرون[2]. وكانت هذه المجالس كالمدارس يتعلم منها الحاضرون ويطلعون فيها على معلومات وأفكار لم يكونوا يعرفونها من قبل[3].

1- نشرته جريدة الجمهورية /العدد 8087/السبت 11 كانون الثاني 1992/6 رجب 1412/ الصفحة السابعة.

2- كانت مدينة الكاظمية تعج بالمجالس وقد دخلت، وأنا صغير، مع والدي إلى مجلس إقبال الدولة في باب المراد وكان يزخر بالمعممين، ولم يكن والدي الذي يبيع الأقمشة من رواد المجالس ولكنه ذهب إلى هناك للقاء أحد الأشخاص. ولاحظت أن أواوين المرقد الكاظمي كانت تعقد في أغلبها مجالس.

3- الواقع، أن بغداد عرفت المجالس منذ العصر العباسي وهي قد تمسكت بهذا التقليد إلى يومنا هذا.

كانت هذه المجالس كثيرة في الماضي، ولكنها بدأت تقلّ شيئا فشيئاً تحت تأثير التلفزيون وغيره من وسائل الإعلام الحديثة إلا أن في بغداد الآن مجالس لها قيمتها ويرتادها عدد غير قليل من المثقفين وتجري فيها مناقشات ومجادلات لها أهميتها. وإني أحاول أن أحضر هذه المجالس كلّما أتيحت لي الفرصة لكي أستفيد منها.. وأرى أن الصحافة يجب أن تهتمّ بهذه المجالس وتعرض على قرائها نماذج مما يجري فيها من مناقشات ومجادلات وهذا ما دفعني إلى كتابة هذا الموضوع[1].. فإن المواضيع التي تناقش في هذه المجالس يندر أن نجد لها مثيلا في مجالات أخرى. وأظنّ أن القراء بهم حاجة إلى مثل هذه المواضيع ولاسيما أبناء الجيل الجديد منهم لكي يتعرفوا على ما يشغل أذهان أبناء الجيل السابق لهم ومشكلاتهم الثقافية والاجتماعية.

اعتدت على ارتياد أربعة من تلك المجالس، وقد شجعني على ارتيادها في بداية الأمر الدكتور علي الوردي لأنه اعتاد على ارتيادها أيضاً. وقد اقتديت به في ذلك، وهذه المجالس هي:

1- يرى بعض الأصدقاء أني أول من كتب عن المجالس في الصحافة العراقية، وقد أقبل الناس على ما أكتب بوصفه لوناً جديداً من المواضيع التي يجدون فيها شيئاً مختلفاً، لكن الكثيرين بعد ذلك كتبوا عن هذه المجالس بعد أن وجدوا أن اهتمام القراء واضح بها.

- مجلس الدكتور عبد الحميد الهلالي[1] وهو ينعقد يوم الجمعة قبل الظهر من كل أسبوع.
- مجلس الأستاذ محمد جواد الغبان[2] وهو ينعقد مساء الأحد من كل أسبوع.
- مجلس الأستاذ محمد عيسى الخاقاني[3] وهو ينعقد مساء الاثنين من كل أسبوع.
- مجلس الشيخ فاضل الشيبي كليدار[4] الروضة الكاظمية وهو ينعقد مساء كل يوم في حجرة الكليدار الواقعة في الصحن الكاظمي الشريف بالقرب من باب القبلة.

والذي لفت نظري مؤخرا ما جرى من مناقشات أو مجادلات حادة في مجلس الغبان، ففي هذا المجلس يحضر الشيخ جلال الحنفي والدكتور علي الوردي بالإضافة إلى عدد من المثقفين

1- عبد الحميد الهلالي شخصية قومية عراقية، شارك في حركة مايس 1941، درس في ألمانيا واستوزر في عهد عبد السلام محمد عارف الذي حكم العراق 1963 . 1966.

2- شاعر عراقي من مواليد النجف العام 1930، له عدد من الدواوين أولها (الأمل) في العام 1953.

3- هو أبو علي الدكتور محمد بن الشيخ عيسى الخاقاني، ولد في عام 1963، أدار مجلس الخاقاني الثقافي الأسبوعي في دار والده في الكاظمية وكان أحد مؤسسي ذلك المجلس، أكمل دراسته في كلية اللغات متخصصا بالأدب الفارسي حيث نال شهادة الماجستير في الأدب المقارن عن رسالته الموسومة (حافظ الشيرازي وغوتة) في 1999 ويعمل الآن أستاذاً في جامعة البحرين...

4- كليدار: في اللغتين الفارسية والتركية تعني صاحب المفاتيح، وهو سادن المرقد والمدير الأعلى فيه، وقد توارث الشيخ فاضل السدانة عن آبائه وأجداده الذين تولوها منذ مئات السنين، ولم تنتزع منهم إلا بعد احتلال العراق عام 2003.

المعروفين، والوردي والحنفي (بينهما ما صنع الحداد) على حدّ تعبير المثل القديم فهما لا يكاد يستقر بهما المجلس حتى يثور النقاش بينهما حول رأي من الآراء، وكثيرا ما يتحول النقاش إلى جدل حاد ترتفع فيه الأصوات، وينقسم الحاضرون إلى فريقين وكل فريق يؤيد أحدهما دون الآخر.. ومن سوء حظ الدكتور الوردي أن الفريق الذي يؤيده يكون في أكثر الأحيان أقل من الفريق الذي يؤيد الحنفي. وكثيراً ما ينتهي الجدل إلى انتصار الحنفي وفشل الوردي الذي يرجع من جدله بخفي حنين.

الجلسة الأخيرة

آخر جلسة حضرتها لمجلس الغبان هي الجلسة التي انعقدت مساء الأحد ١٩٩١/١٢/٢٩، ونشب فيها الجدل بين الحنفي والوردي حول موضوعين أحدهما علم الباراسيكولوجي[1]، الذي، يسميه الوردي «علم الخارقية»، والثاني منطق أرسطو وهو المنطق الذي ما يزال يدرّس في المدارس القديمة وهو في رأي الوردي منطق غير صحيح وقد ذهب زمانه.

1- الباراسيكولوجي أو ما وراء النفس علم حديث برز مع نهاية القرن التاسع عشر ويبحث في الظواهر النفسية والذهنية الخارقة التي تحدث لبعض الأشخاص، والتي عجز العلم عن إيجاد تفسير لها، وقد لجأ المهتمون إلى دراسة هذه الظواهر عن طريق الفيزياء الحديثة، ومن أهم الظواهر التي يدرسها هذا العلم: التخاطر Telepathies، التحريك عن بعد Tel-kinesis، الاستبصار أو رؤية ما هو خارج نطاق البصر Clairvoyance، الخروج من الجسد Astral Projection بالإضافة إلى الاتصال بكائنات غير منظورة Spiritism (.

ويرى الوردي أن علم الخارقية (الباراسيكولوجي) علم معترف به في الأوساط العلمية في جميع أقطار العالم، ولكن الحنفي يعده نوعاً من الساختات[١] والتخريفات والحنقبازلغيات[٢]، وهو استخفاف بالعقل الذي وهب الله عباده ليميزوا الحق من الباطل والخبيث من الطيب، وقد ذكر الحنفي رأيه هذا في حقله الخاص في جريدة «القادسية» في ١٩٩١/١٠/٦.

ولم يقتصر الجدل بين الحنفي والوردي حول هذا الموضوع على هذه الجلسة الأخيرة، بل هو قد جرى قبل هذا في جلسات سابقة، وكانت بداية الجدل حول الدور المسكونة التي تجري فيها أمور غريبة لا يعرف تفسيرها، وهي معروفة عندنا وفي كثير من بلاد العالم. فالحنفي ينكر وجود مثل هذه الدور قطعاً ويعدّها منافية للعقل والمنطق. وقد أعلن الحنفي في المجلس أنه مستعد للمبيت في أية دار يقال عنها أنها مسكونة على شرط أن يفحصها فحصاً دقيقاً قبل المبيت فيها[٣].

1- مفردة فارسية تقابلها في العربية التلفيقات.

2- مفردة تركية تعني :- العاب بهلوانية أو طرزانيات أو إستعراضات يقوم بها بعضهم لعرض أنفسهم بنحو يخالف الواقع.

3- خلال عملنا في كتاب (تحليل شخصية الوردي) لاحظ الدكتور حسين سرمك مفارقة طريقة وهي أن يقف الوردي وهو أكاديمي مع علم الباراسيكولوجي الذي يعد من العلوم التي تهتم بالغيبيات، في حين يقف الحنفي وهو عالم دين موقفاً متشدداً ومتشككاً من هذا العلم، ولابد أن أذكر أن الحنفي اشترط أن يفحص الدار قبل المبيت بها لأنه خشي أن تكون الأصوات أو الحركات التي قد تصدر من البيت من فعل الوردي، ولكنه تراجع عن المبيت مع الوردي أخيراً.

من الجدير بالذكر أن الوردي عضو في الجمعية الباراسيكولوجية وقد اتصل برئيس الجمعية الدكتور الحارث عبد الحميد[1] لكي يختار له داراً مسكونة ليبيت فيها الحنفي. وتعهد الوردي أنه سيبيت معه والله وحده يعلم بما سوف يجري آنئذ!!.

إن (الجمهورية) [2] مستعدة لاستحداث حقل خاص لهذا الموضوع، ولاسيما بعد أن يبيت الحنفي والوردي في الدار المسكونة وستنشر كل ما يكتبه هذان الباحثان الفاضلان حول ما يجري في الدار من أمور غريبة في ليلة المبيت التي أرجو أن تكون قريبة إن شاء الله.

المنطق العقيم

والموضوع الثاني الذي جرى النقاش حوله بين الحنفي والوردي في الجلسة الأخيرة هو المنطق الأرسطي نسبة إلى أرسطوطاليس، وهو الذي يسمى أحياناً «المنطق القديم» أو «المنطق الصوري» أو «المنطق الشكلي» أو «المنطق الاستنتاجي» أو غير ذلك.

1- الدكتور الحارث عبد الحميد حسن الأسدي اختصاصي في أحد العلوم النفسية النادرة مدير مركز البحوث النفسية والتربوية في جامعة بغداد قتل يوم الأربعاء 7/12/2006 في مدخل جامعة بغداد، أمام زوجته التي كانت معه في السيارة ونجت من الحادث على يد عصابة إجرامية من صنائع الاحتلال، بعد بحث كان أرسله إلى مؤتمر علمي في دمشق، وبعد أن تحدث لفضائية «الجزيرة» الإنجليزية عن اغتيال الأطباء في العراق.

2- المقصود جريدة الجمهورية البغدادية.

وقد كتب الحنفي في حقله الخاص في جريدة (القادسية) [1] في ١٥/١٢/ ١٩٩١ يقول منتقداً رأي الوردي ما نصه:

«قال قائل في مقال طريف بالقادسية نقلاً عن الدال[2] علي الوردي إن منهج أرسطو طاليس في الاستنتاج قد ولى واندثر مع الزمن وحلّ محلّه المنهج الاستقرائي المبني على العلم والمنطق والتجربة.. قلنا إن الاستنتاج ـ وهو أصل أصيل باهر الدقة في فهم الأمور واستكناه كنه الحقائق ـ ما يزال قائماً من عهد أرسطو طاليس وافلاطون وفلاسفة العرب والهند والصين وحتى عهد الناس في جيل الناس القائم، ولا نزيد على هذا شيئا لأن المقولة المنقولة لم تتأيد بعد باعتراف الوردي وتصديقه.

إن هذا الرأي الذي كتبه الحنفي منتصف الشهر الماضي أثير مرة أخرى في الجلسة الأخيرة من مجلس الغبان. فالمنطق الأرسطي في رأي الوردي استنتاجي مع العلم أن العلم الحديث قائم على أساس المنطق والمنهج الاستقرائي. فقد ظلّ المفكرون الذين يسيرون على المنطق الأرسطي طيلة قرون كثيرة يتجادلون من دون أن يصلوا في جدلهم إلى نتيجة مجدية، وهم كانوا مهما طال الجدل بينهم

1- كان الشيخ جلال الحنفي رحمه الله يكتب زاوية اسبوعية في «القادسية» عنوانها «رؤوس أقلام أسبوعية» يكتب فيها ما يعنّ له من ملاحظات شخصية وغير شخصية خلال الأسبوع.

٢ ( ) يستعمل الحنفي كلمة الدال بدل (الدكتور) التي يعدها مفردة أجنبية، وهي تعني عنده الدال على العلم.

يعتقد كل فريق منهم أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه، ولم يستطع أحدهما أن يقنع الآخر بصحة رأيه.

ويرى الوردي أن الجدل القائم على المنطق الأرسطي عقيم لا فائدة منه فهو يعتمد على مقولات أو مقدمات أو مفاهيم عقلية متعارف عليها، وكل فريق من المتجادلين يأتي بالمقدمات التي تلائمه، ويفعل خصمه مثل ذلك وهم في ذلك كالمتشاجرين في الشارع من العوام. لكن الفرق بينهما أن المفكرين القدماء يتصاولون بالأدلة العقلية بينما العوام يتصاولون بالأيدي أو السكاكين.

وشرح الوردي رأيه هذا بتفصيل في كتاب له صدر في القاهرة في العام ١٩٦٢، وأعيد طبعه في تونس وعنوانه «منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته».. ففي رأي الوردي أن ابن خلدون كان من الذين ثاروا على منطق أرسطو وبيّنوا عيوبه.

وقد جاء الوردي بنسخة من هذا الكتاب وقدمها إلى الحنفي لكي يقرأها ويرى رأيه فيها وقد وعد الحنفي أنه سوف يقرأ الكتاب ويعلق عليه في الصحف.. والمظنون أن القراء ينتظرون ما سوف يكتبه الحنفي في ذلك كمثل ما ينتظرون ما يكتبه عن مبيته في الدار المسكونة.

وسوف أتابع بدوري ما يستجد من مناقشات ومجادلات في مجلس الغبان والمجالس الأخرى.

هل الباراسيكولوجي
«ساختات وتخريفات وحنقبازلغيات»؟[1]

في الحادي عشر من شهر كانون الثاني الماضي نشرت في هذه الجريدة الحلقة الأولى من هذا الموضوع الذي أسميته (المجالس مدارس) وقصدت به ما يجري في بعض مجالس المثقفين في بغداد من أحاديث ومناقشات مفيدة. وقد حاولت أن اذكر لقراء الجريدة ملخصات لتلك الأحاديث والمناقشات عسى أن يجدوا فيها ما ينفعهم ولاسيما أبناء الجيل الجديد منهم.

ذكرت في الحلقة الأولى ما جرى من مناقشات في مجلس الأستاذ محمد جواد الغبان الذي انعقد مساء الأحد ١٩٩١/١٢/٢٩ وكيف نشب الجدال بين اثنين من الحاضرين فيه هما الشيخ جلال الحنفي والدكتور علي الوردي في موضوعين هما الباراسايكولوجي والمنطق الأرسطي. فالوردي يقول عن المنطق الأرسطي إنه عقيم ذهب زمانه لأنه يقوم على أساس الاستنتاج وقد حلّ محلّه منطق الاستقراء الذي هو على النقيض من الاستنتاج، وكذلك يقول

1-جريدة الجمهورية العدد 8105 / السبت 1 شباط 1992م – 27 رجب 1412هـ.

الوردي إن علم الباراسايكولوجي أصبح الآن علماً معترفاً به في جميع الأوساط العالمية في العالم.

أما الحنفي فله موقف آخر من هذين الموضوعين، فالمنطق الأرسطي في رأيه مازال صحيحاً منذ عهد مؤسسه أرسطو حتى يومنا هذا، أما الباراسايكولوجي فهو في رأي الحنفي نوع من السختات والتخريفات والحنقبازلغيات، وهو مخالف للعقل والمنطق.

وكانت نتيجة الجدال، كما ذكرت، انتصار الحنفي وفشل الوردي لأن المؤيدين للحنفي بين الحاضرين في المجلس كانوا أكثر عدداً من المؤيدين للوردي، وباء الوردي من الجدل بخفي حنين .

مجلس الهلالي

في هذه الحلقة سأتحدث عن مجلس آخر هو مجلس الدكتور عبد الحميد الهلالي الذي ينعقد عادةً في ضحى الجمعة من كل أسبوع، ويؤسفني أنني لا أتمكن من حضوره إلا في أوقات متباعدة لانشغالي بعملي في الجريدة ولكني كنت حريصاً على تتبع ما يجري فيه من مناقشات من الذين اعتادوا على حضوره.

ولابد أن أذكر هنا، أن الشيخ الحنفي لا يحضر مجلس الهلالي ولهذا فأن هذا المجلس يخلو من الجدال النافع الذي ينشب عادةً بينه وبين الوردي.

وقد حدثني أحد رواد مجلس الهلالي أن هناك شيئاً آخر يحدث في هذا المجلس هو أن الدكتور عز الدين أبو التمن[1] حين يحضر المجلس يكون له القدح المعلى فيه، فهو إذا تكلم فيه جذب انتباه الحاضرين واهتمامهم، وهو يظل يتكلم من دون أن يقاطعه أحد، وهذا على النقيض مما يجري في المجلس مع الوردي، لأن الوردي لا يكاد يتكلم فيه حتى تنهال عليه الاعتراضات والمقاطعات من الحاضرين فيه مما يضطره إلى السكوت مرغماً.

من المؤسف أني لم أحضر الجلسة التي انعقدت في بيت الهلالي في ١٩٩٢/١/١٧، لانشغالي بواجب خارج بغداد فتلك الجلسة كانت ذات أهمية خاصة، حيث ألقى فيها الدكتور أبو التمن حديثاً في موضوع الإبداع، ونال حديثه الاهتمام والإصغاء التام من الحاضرين، وقد وجه أحد الحاضرين سؤالاً إلى الدكتور الوردي باعتبار أن الإبداع يدخل في موضوع اختصاصه وأنه قد تطرق إليه في بعض كتبه ومقالاته ومحاضراته، ولكن الوردي لم يكد ينطق بجملة واحدة في جواب هذا السؤال الموجه إليه حتى انبرى الدكتور أبو التمن له فأخذ زمام الحديث منه وصار يتكلم بدلاً عنه .

1- كان اختصاص الدكتور أبو التمن هو علم النفس وهو اختصاص نادر بالنسبة لحضّار المجالس في بغداد لذلك كان الجميع يصغون إليه، وقد جاء أبو التمن إلى العراق سنتين أو ثلاث ثم غادرها عائداً إلى وارشو لأن زوجته من هناك ثم عاد إلى العراق بعد الاحتلال بصفته معارضاً للنظام الوطني الذي سبق الاحتلال وعمل في إحدى الحركات السياسية التي لم تحصل على شيء من الكعكة فغادر العراق ثانية، وقد التقيته في الشام ولكنه لم يكن ذلك المليء بالحيوية الذي عرفته من قبل، وشعرت أنه يخفي شعوراً غامضاً بالإحباط.

إن الدكتور عز الدين أبو التمن حصل على شهادة الدكتوراه في علم النفس من جامعة وارشو في العام ١٩٨٥، وهو منشغل الآن بتأليف كتاب في موضوع (الإبداع) وقد ألقى بحثاً في الموضوع نفسه في مجلس الدكتور حسين أمين الذي انعقد في مساء الأربعاء ١٩٩٢/١/١، وهو عندما ألقى حديثه عن الإبداع في مجلس الهلالي كان متمكناً منه، وقد أفاض في شرحه كثيراً .

وعندما علمت ما جرى في مجلس الهلالي هذا ذهبت إلى الدكتور علي الوردي لكي اسأله عن رأيه في تلك الجلسة لفائدة القراء، وكان سؤالي الرئيس إليه هو عن السبب الذي جعله ساكتاً فيها بينما كان الدكتور أبو التمن مطلق العنان يصول ويجول من دون معارض أو مقاطع.

أجابني الوردي بأنه حائر في هذا السؤال كمثل حيرتي أنا فيه، وقال هذه ظاهرة عجيبة ألاحظها في بعض الأحيان في مجلس الهلالي وفي مجلس غيره أيضاً، فأني عندما أتكلم يكثر المقاطعون والمعترضون. أما عندما يتكلم بعض المتكلمين غيري، ولاسيما الدكتور أبو التمن، فأن السكوت يعم الحاضرين كأن على رؤوسهم الطير .

وذكّرني الوردي بقصة طريفة كنت أحد شهودها جرت في مجلس الأستاذ زهير محي الدين[1] وهو المجلس الذي كان ينعقد سابقاً ثم انقطع أخيراً، وهي أن الدكتور أبو التمن ألقى حديثاً في ذلك المجلس استغرق نحو أربعين دقيقة، ثم جرت المناقشة حوله وكان الوردي من جملة المناقشين واستغرقت مناقشته نحو خمس دقائق، وعند انتهاء الجلسة قام أحد الحاضرين تجاه الوردي وخاطبه بعبارات لا تخلو من خشونة وقال له إن رأيه خطأ وإنه أخذ من وقت المجلس أكثر مما ينبغي .

ويقول الوردي إنه استغرب من هذا القول، فهو لم يأخذ من وقت المجلس إلا قليلاً بالنسبة إلى ما أخذه الدكتور أبو التمن، فما هو السبب الذي جعل هذا الرجل يضيق به ذرعاً؟ ..

إن هذا هو ما يواجه الوردي في بعض المجالس التي يحضرها، وهو يتساءل دائماً عن السبب فيه، ومن جانبي فأني أوجه هذا السؤال إلى الذين يحضرون المجالس التي يحضرها الوردي لعلهم يعرفون السبب، فالوردي يرى أن الإنسان كثيراً ما يعجز عن فهم نفسه على حقيقتها، وأن غيره أقدر على ذلك منه .

1- طبيب عراقي يقيم الآن في العاصمة الأردنية وهو ابن الدكتور عبد الرزاق محيي الدين الوزير العراق في عهد الرئيس عبد السلام محمد عارف 1963. 1966، وقد قتل عارف في حادث سقوط طائرته في البصرة.

اقتـــــراح

أقدم في هذه المناسبة اقتراحاً في أن يقام اجتماع عام في إحدى القاعات المخصصة للمناقشات العلمية يدعى إليه كل من يرغب في حضورها، فيلقي فيه كل من الدكتورين الفاضلين أبو التمن والوردي محاضرة في موضوع الإبداع، فهذا الموضوع هو من أهم المواضيع التي نحتاج إليها في المرحلة الراهنة التي نمرّ بها والذي أعرفه عن هذين الدكتورين الفاضلين أن كلاً منهما ينظر في موضوع الإبداع من زاوية تختلف عن زاوية الآخر، لأن كلاً منهما تخرج من جامعة تختلف في اتجاهها العلمي عن اتجاه الجامعة التي تخرج منها الآخر، وفي رأيي أن الذي يستمع إليهما وهما يبحثان في الموضوع من زاويتين مختلفتين قد يحصل على فائدة لا يمكن الحصول عليها من الاستماع إلى البحث من زاوية واحدة .

وأود أن أضيف إلى هذا الاقتراح اقتراحاً مكملاً له، هو أن يجري التصويت برفع الأيدي من الحاضرين بعد الانتهاء من المحاضرتين، والغرض من ذلك هو أن تعرف عدد الذين يؤيدون كلاً من المحاضرين بالمقارنة إلى عدد الذين يؤيدون الآخر، وهذه تجربة علمية نستطيع أن نعرف بها هل هناك فرق بين الاجتماع العام الذي يحضره جمهور من المستمعين والاجتماع الخاص الذي تحضره نخبة من المثقفين في أحد البيوت.

ونظراً لأهمية مجلس الأستاذ عبد الحميد الهلالي والقيمة العالية للمواضيع التي تناقش فيه.. فسأتابع حضوره والكتابة عنه في الأسبوع المقبل .

«البيسويون» و«الشايويون» والتمييز الاجتماعي [1]

.... تحدثت عن مجلس الغبان ومجلس الهلالي. وأريد الآن أن أتحدث عن مجلس ثالث هو مجلس كليدار الروضة الكاظمية الذي ينعقد كلّ يوم تقريباً في غرفة خاصة به في صحن الكاظمية.

إن الذي يرأس المجلس في الوقت الحاضر هو الشيخ فاضل الشيبي، وقد ورث ذلك عن والده المرحوم الشيخ علي الذي توفي عام ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦م. وكان الشيخ علي قد ورث رئاسة المجلس بدوره عن والده المرحوم الشيخ حميد الذي توفي في العام ١٩١٧.

إن رئاسة المجلس وراثية يرثها الابن عن أبيه في الغالب. وهذا المجلس له وظيفته الاجتماعية إذ يجتمع فيه وجهاء البلدة عادةً كما يحضره في بعض الأحيان بعض المسؤولين في الإدارة المحلية ووزارة الأوقاف، وقد يحضره بعض الوزراء. وكان الولاة في العهد العثماني يحضرونه كذلك. وبهذا صار هذا المجلس حلقة الوصل بين الشعب

1- نشرته جريدة الجمهورية /العدد 8111/السبت 8 شباط 1992/4 شعبان 1412/ الصفحة السابعة.

والحكومة إذ تجري فيه المناقشات حول بعض القضايا والمشكلات التي يعاني منها الناس ويريدون إسماع صوتهم إلى المسؤولين.

أحد مواضيع النقاش

إني أكثر من الترداد على هذا المجلس وذلك لقربه من مسكني، وكثيراً ما أستفيد من المناقشات التي تدور فيه ولاسيما في المواضيع التي تتصل بمشكلات الناس وقضاياهم وكيف يحاول المسؤولون معالجتها.

كان من بين المواضيع موضوع جرى النقاش حوله ذات مساء في إحدى جلسات المجلس، وهو جدير بأن يعرفه القراء، حول تخصيص مقبرة خاصة بالكاظمية وقريبة منها.

يجب أن لا ننسى أن نقل الجنائز أصبح في هذه الأيام يكلف غالياً ولا يطيق الفقراء تكاليفه، وقد لا يطيقها بعض أولي الدخل المتوسط أيضاً، وهذا بالإضافة إلى أن بعض الناس لا يستحسنون نقل الجنائز من الناحية الشرعية وهم يعدونه إسرافاً لا فائدة منه، ولذلك فهم يطلبون تحديد مقبرة قريبة من الكاظمية لكي يسهل عليهم دفن موتاهم فيها.

ويذكر في هذه المناسبة أن المرحوم السيد هبة الدين الشهرستاني كان قد أصدر في العام ١٩١٠ كتاباً أعلن فيه تحريم نقل الجنائز وروى عن الإمام علي (ع) أنه نهى عن نقل الجنائز وأنه عاقب

جماعة من أهل الكوفة في عهد خلافته لأنهم نقلوا جنازة لهم من الرستاق إلى الكوفة وقال لهم: «لا تكونوا كاليهود ينقلون موتاهم إلى بيت المقدس»[1].

لقد جرى النقاش في مجلس الكليدار حول هذا الموضوع، وانبرى أحد الحاضرين يفنّد رأي الشهرستاني ويبرهن على أن دفن الجنائز في النجف مستحب. وكان في المجلس أشخاص يرون خلاف هذا الرأي، واحتدم الجدال بين الفريقين، فكان لكل فريق منهما أدلته الشرعية وهو مقتنع بصحتها.

1- لخص الأديب جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم». الجزء الثاني. انتشارات المكتبة الحيدرية. طهران ـ ص 203. 204. 205 دعوة السيد هبة الدين الشهرستاني التحريمية لنقل الجنائز من الأماكن النائية إلى النجف الأشرف في (أن السيد هبة الدين كان لا يبيح نقل هذه الجنائز إذا ما أخل هذا النقل بحرمة الميت بحيث يسبب نتونة الجثة وتفسخها أو الاستهانة بها، وحصر النقل في دعوته على الأماكن القريبة، وقد أورد في كتابه هذا (تحريم نقل الجنائز) الذي قرأته بعد حدوث الضجة والهياج بمدة طويلة عدداً من القصص التي تقشعر لذكرها الأبدان، ومن بين تلك الشواهد من القصص التي أوردها في كتابه وظلت عالقة بذهني هي: أن قافلة كانت تحمل نحو مائتي جنازة من الجنائز التي كانت مدفونة في قبور مختلفة من البقاع الإيرانية على سبيل (الأمانة) حتى إذا مرّ الزمن الذي يكفي لامتصاص الأرض مواد الجثة وتعرق العظم أخرجت هذه الهياكل العظمية وصُرّت عظام كل جثة في صرّة وحملت في صناديق للاتجاه بها إلى العراق ودفنها في العتبات المقدسة. وكان أن وصلت هذه القافلة إلى المحمرة (خرمشهر اليوم) وأنزلت في ساحة الكمرك فشبت في تلك الليلة النار في أحد الأماكن القريبة ثم ما لبث أن اتصلت بدائرة الكمرك ثم بالجنائز فأحرقتها ولم تتركها إلا رماداً». وروى الخليلي نفسه قصة أخرى لرجل أكل عظام ميت وهو يحسبه كسر من الخبز (المحمس) المعجون بالتوابل من الأملاح والحوامض والمجفف على النار. راجع (هكذا عرفتهم).

ليس هنا مجال البت في هذا الموضوع الشائك وكلّ ما أريد قوله هو أنه موضوع جدير بأن يأخذ قسطاً من اهتمام وزارة الأوقاف وأمانة بغداد، فإن تخصيص مقبرة قريبة من الكاظمية أمر ينفع الناس كثيراً، وهو ينقذهم من كثير من المشقة وبذل الجهد والمال في عمل لا جدوى فيه، وقد ورد عن النبي ﷺ: «المرء مدفون بعمله».

موضوع آخر

من بين المواضيع التي نوقشت في مجلس الكليدار موضوع آخر يتصل بالتصنيف الطبقي الذي يجري في المجلس. فقد اعتاد خادم المجلس في فترة من الفترات الماضية على أن يقدم (البيبسي كولا) إلى بعض الحاضرين في المجلس بينما يقدم الشاي إلى بعضهم الآخر. وهذا هو الذي جعل الدكتور الوردي يطلق على الفئة الأولى لقب «البيبسويين»، وعلى الفئة الثانية لقب «الشايويين»، وهو قد يسميهم أحياناً «الكبراء» و«الصغراء»، علماً بأن الوردي نفسه كان معدوداً في نظر الخادم من «الشايويين» أي «الصغراء».

إن للخادم الحق في هذا التصنيف لأنه يرى المجلس يرتاده أصحاب المناصب العالية الذين بيدهم الأمر، كما يرتاده في الوقت نفسه بعض الكسبة والأفندية المتقاعدين كالوردي ومن لفّ لفه، وليس من الإنصاف في نظر الخادم أن يعامل هؤلاء كلهم معاملة واحدة بلا تمييز.

إن رأي الخادم هذا لا يوافق عليه بعض الذين يحضرون المجلس. ففي رأيهم أن الناس يجب أن يعاملوا معاملة واحدة في المجالس سواء كانوا من أولي الأمر والنهي أم من الكسبة والمتقاعدين. وقد ورد في الحديث النبوي قوله ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط».

ولكن هناك من الذين يحضرون المجلس ينظرون في الأمر نظرة أخرى، فهم يذكرون ما جرت عليه التقاليد الموروثة في مضائف العشائر وبيوت الأشراف حيث يقدم فيها أهل الحسب والنسب وأصحاب الوجاهة والمشيخة فهؤلاء يجلسون في صدر المجلس عادة ويتناولون الطعام قبل غيرهم فإذا انتهوا من الأكل تقدم الآخرون ليأكلوا من فضلات طعامهم. وقد أورد أحد الحاضرين قولاً للنبي ﷺ يؤيد هذا الرأي هو قوله: «قدموا ذوي الهيئات».

إني لا أستطيع أن أحكم في هذا الموضوع إلى هذا الجانب أو ذاك، وقد توجهت إلى الدكتور الوردي أسأله عن رأيه فيه، فقص عليّ القصة الآتية أذكرها هنا كما سمعتها منه.

يقول الوردي إن أحد الكبراء مات له ميت منذ عهد ليس بالبعيد فأقام له مجلس فاتحة في بيته العامر. وأحب الوردي أن يحضر مجلس الفاتحة لأنه كان يعرف هذا الشخص الكبير قبل أن يكون كبيراً، وكانت في المجلس قاعتان متجاورتان إحداهما واسعة وهي مخصصة للكبراء، والثانية صغيرة وهي مخصصة للصغراء وكان

يقف بين بابي القاعتين رجل أنيطت به مهمة التفريق بين القادمين إلى المجلس فيوجه الكبراء إلى القاعة الواسعة المخصصة لهم كما يوجه الصغراء إلى قاعتهم.

يقول الوردي أنه عندما همّ بالتوجه نحو مجلس الفاتحة نظر إليه الرجل الواقف بين البابين وأخذ يتفرس فيه لحظة لكي يعرف هل هو من الكبراء أو من الصغراء ثم قرر أخيراً أنه من الصغراء فأشار بيده نحو القاعة الصغيرة المخصصة لهم. وعندما استقر الوردي في مقعده في تلك القاعة أخذ يقرأ سورة «أبي لهب» بدلاً من سورة «الفاتحة».

ويعلق الوردي على هذه القصة بقوله أنه إنما قرأ سورة «أبي لهب»من باب النكتة، فإن الميت لا يضرّه أو ينفعه أي شيء نفعله له نحن له لأن حساب الآخرة غير حساب هذه الدنيا. أما التفريق بين الناس في المجلس إلى كبراء وصغراء فالوردي يقول إنه يميل إليه قلبياً وإن كان لا يقبل به من حيث المبدأ، فإنه عندما حشر مع الصغراء شعر كأن ذلك كان درساً له جعله يفهم نفسه ويعرف قدرها كما هي في الواقع.

ويؤكد الوردي إن الإنسان به حاجة دائما إلى مثل هذا الدرس لكي يتجنب الغرور والتعالي.

- في هذا العدد نفسه نشرت «الجمهورية» خبراً عن المصالحة التي تمت بين الوردي والجريدة، فقد صبّ الوردي غضبه على رئيس التحرير سعد البزاز بسبب تلاعب جرى في سلسلة مقالاته التي كان ينشرها فيها بعنوان «القيم البغدادية» وقد رأى محررون أنها تتجاوز الخط الأحمر، واعتقد الوردي «وهو محق» أن أحداً لا يمكن أن يتلاعب هذا التلاعب إلا البزاز، أو بمباركة ورضا منه، ولعلاقتي الطيبة مع الوردي كلفني البزاز بمهمة التوسط لدى الوردي لاسترضائه وقد اصطحبت الوردي والعلامة الراحل الدكتور حسين علي محفوظ والشاعر الأردني ماجد المجالي الذي كان يحل ضيفاً على أحد مهرجانات بغداد الشعرية ومدير تحرير «الجمهورية» زهير العامري وجاء البزاز وبعد العتب تمت تسوية الأمر وحضر بعدها عباس الجنابي الذي كان رئيساً لتحرير جريدة «بابل» التي كان يصدرها السيد عدي نجل الرئيس الراحل صدام حسين، ونقل الجنابي إلى الوردي رغبة السيد عدي بلقائه فرفض بنحو أثار دهشتنا لشجاعته، وفيما يأتي نص خبر المصالحة:

د. الوردي ود. محفوظ والمجالي في الجمهورية

مثلما لكل جريدة علاقات مع كتّابها، فإن للجمهورية علاقات خاصة وعميقة مع مجموعة من الكتاب الكبار والدكتور علي الوردي أحد أهم من تعتز الجمهورية بعلاقاتها معهم، وإذا ما كان

الاختلاف في الرأي يعد شكلاً من أشكال الحوار فإنه قد يسبب أيضاً «ضباباً» يغلف فضاء العلاقة في بعض الأحيان، وقد حدث تضبب المناخ قليلاً، وبالأخص حول مقالات الدكتور الوردي التي نشرت في جريدتنا عن القيم البغدادية، فقد رأى بعض المحررين آراء أخرى غير التي وردت في مقالاته.

وفي زيارة عمل وود مساء أمس (الجمعة ٧ شباط ١٩٩٢) قام بها الدكتور الوردي بصحبة الدكتور حسين علي محفوظ والشاعر الأردني ماجد المجالي إلى مقر الجريدة استقبلهم الأستاذ سعد البزاز رئيس التحرير وتم الاتفاق بعدها على أن يواصل الدكتور الوردي نشر مقالاته بغض النظر عن اختلاف الرأي.. عملاً بحرية الفكر وتأكيداً لأواصر الجريدة مع كتّابها.. وسيكون الباب مفتوحاً لكل من يريد أن يناقشه فيها سلباً أو إيجاباً.

وزار الجريدة في الوقت نفسه السيد عباس الجنابي رئيس تحرير الزميلة (بابل) حيث حضر اللقاء وشارك في الحوار المستفيض الذي جرى خلاله.

الشهرستاني ونقل الجنائز [1]

في الحلقات الماضية تحدثت عن مجالس هي مجلس الأستاذ محمد جواد الغبان ومجلس الدكتور عبد الحميد الهلالي ومجلس الشيخ فاضل الشيبي كليدار الكاظمية .

ذكرت في الحلقة الماضية عن مجلس الكليدار أن الخادم فيه يصنف الحاضرين إلى طبقتين: كبراء وصغراء، فهو يقدم (البيبسي كولا) إلى الطبقة الأولى بينما يقدم الشاي إلى الطبقة الثانية، ولكن مجلس الكليدار يتميز بظاهرة اجتماعية أخرى، هي كونه يجمع بين فئتين مختلفتين من حيث التمسك بالمعتقدات والعادات القديمة والتعصب لها، فهناك أشخاص من رواد المجلس يتعصبون لجميع المعتقدات والعادات التي نشأوا عليها، وهناك أشخاص آخرون غير متعصبين، وكثيراً ما ينشب الجدال في المجلس بين الفئتين.

إن نشوب الجدال بين هاتين الفئتين في مجلس الكليدار أمر طبيعي لا غرابة فيه، وقد يصحّ القول إن هذا النوع موجود في جميع

1- نشرته جريدة الجمهورية /العدد 8117/السبت 15 شباط 1992/12 شعبان 1412/ الصفحة 11.

المجالس ولكنه في مجلس الكليدار أكثر حدوثاً، وذلك لما في الكاظمية من صفة خاصة جعلتها موضع صراع بين القديم والحديث أكثر من أية مدينة أخرى.

إن الكاظمية كما هو معروف مركز ديني ومزار مقدس، وقد ظهر فيها علماء دين ونشأت فيها مدارس دينية، ولكنها في الوقت نفسه قريبة من العاصمة بغداد، وهي الآن تعد جزءاً منها، ويجب أن لا ننسى أن بغداد كانت أول مدينة في العراق جاءتها معالم الحضارة الحديثة، وظهر فيها الصراع بين القديم والحديث، وهذا الصراع لابد أن ينتقل إلى الكاظمية لقربها من بغداد.

يحدثنا الدكتور علي الوردي في مذكراته التي نشرتها «التضامن» إنه عندما نشأ في الكاظمية كان يعاني من أعماق نفسه من هذا الصراع بين القديم والحديث، فقد كان والده متديناً ومولعاً بقراءة الكتب الدينية القديمة كما كان شديد الانتقاد لمن يقول بأن الأرض كروية وأن المطر من البخار، وقد صدر في تلك الأيام كتاب لأحد علماء الدين عنوانه «السيف البتار على الكفار الذين يقولون المطر من البخار»، وقد شهد الوردي بنفسه رجلاً يعتدي على آخر بالضرب بسبب أن المعتدى عليه كان من القائلين بأن المطر من البخار.

ويقول الوردي إنه في الوقت الذي نشأ في تلك البيئة الاجتماعية المتزمتة كان كثير التردد على بغداد، وعلى سوق السراي بوجه

خاص، لشراء بعض المجلات والكتب الحديثة، فهو كان مولعاً بتلك الكتب كمثل ما كان والده مولعاً بالكتب القديمة، ولهذا كان البيت الذي عاش فيه في تلك المدة يضم كتباً من كلا النوعين، فكان عقله يشبه أن يكون ميدان معركة ضارية، وهو ضائع فيها لا يدري ما يصنع.

ويقول الوردي أيضاً إنه لم يكن الوحيد في ذلك، فإن الكثير من الشباب الذين نشأوا في مثل بيئته حينذاك لابدّ أن يكونوا قد عانوا من مثل هذه المعركة الفكرية قليلاً أو كثيراً.

عودة إلى مجلس الكليدار

إن مجلس الكليدار في الوقت الذي كان يضم فئة من أمثال الوردي كان يضم أيضاً فئة من طراز مناقض لها.

حدثني الوردي عن مشكلته في هذا المجلس، فهو كثير التردد عليه، وهو كثيرا ما يعاني من تزمت بعض الحاضرين فيه، وهو يقف في بعض الأحيان حائراً لا يدري ما يصنع، فالجدل مع هؤلاء المتزمتين لا ينفع ولا يؤدي إلى نتيجة، ولكن الوردي مع علمه بذلك يجد نفسه أحياناً مدفوعاً إلى الجدل بدافع قهري لا حيلة له فيه.

يقول ديل كارينجي في كتابه المشهور «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس» إن من الأفضل للإنسان أن يتجنب الجدل، وهو يأتي في ذلك بالحكمة القائلة «اكسب الجدل بأن تتجنبه»، ولكن

الوردي مع علمه بصحة هذه الحكمة يندفع في الجدل أحياناً ثم يندم بعدئذ من حيث لا ينفع الندم.

إني أحب حضور الجلسات التي يحصل فيها مثل هذا الجدل، فإني أجد فيها دروساً لا أجدها في مجالات أخرى، وقد لاحظت في بعض الأشخاص من رواد المجلس أنهم يتعصبون للمعتقدات والعادات التي نشأوا عليها بغض النظر عن كونها مخالفة لمقتضيات العصر الحديث، أو مخالفة لمبادئ الإسلام، وهؤلاء المتعصبون أشار إليهم القرآن في عدد من آياته حيث وصفهم بأنهم يتمسكون بكل ما وجدوا عليه آباءهم ويقاومون كل إصلاح جديد وإن كان أفضل من الذي وجدوا عليه آباءهم.

خذ، على سبيل المثال، قضية نقل الجنائز، وهي القضية التي أشرت إليها في الحلقة الماضية، فإن نقل الجنائز يحتاج إلى جهد كبير ومال كثير ولاسيما في الأماكن البعيدة، مع العلم أنه لا فائدة فيه لأن الميت مدفون بعمله كما ورد في الحديث النبوي الشريف.

ولكن السيد هبة الدين الشهرستاني عندما أطلق دعوته الإصلاحية في العام ١٩١٠ في تحريم نقل الجنائز ثار عليه المتعصبون وشتموه وأراد بعضهم قتله.

والغريب أن هذه الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشهرستاني في العام ١٩١٠ ما زالت تواجه النقمة والمقاومة من المتعصبين وعندما

جاء ذكرها في مجلس الكليدار مؤخراً عارضها أحد المتعصبين وجاء بالأدلة «العقلية» و«النقلية» لتفنيدها.

أعترف للقارئ أني أؤيد في قلبي دعوة الشهرستاني، ولكني لم أعلن رأيي هذا في مجلس الكليدار مخافة من غضب العوام. فالعوام هم دائماً من المتعصبين للمعتقدات والعادات التي نشأوا عليها، وهم يحترمون من يؤيدهم في تعصبهم هذا ويقدرونه، بينما هم يحتقرون ويذمّون من يخالفهم فيه.

وفي رأيي أن من واجب المثقف أن يعلن رأيه بغض النظر عن رضا العوام عنه أو سخطهم عليه، ويؤسفني أني لم أصل إلى هذه الدرجة من الجرأة، وأسأله تعالى أن يساعدني في الوصول إليها عاجلاً أو آجلاً.. إنه سميع مجيب.

الوردي يعتذر للحنفي ![1]

ذكرت من قبل أن مجلس الأستاذ محمد جواد الغبان الذي ينعقد مساء الأحد من كل أسبوع هو من المجالس القيمة في بغداد، إذ تجتمع فيه نخبة من المثقفين وتجري فيه مناقشات ومجادلات لها قيمتها العلمية والأدبية.

ويؤسفني أني لم أستطع حضور جلسة مهمة من جلسات هذا المجلس، وهي الجلسة التي انعقدت مساء الأحد ١٩٩٢/٢/٩، فقد جرى فيها جدال حول موضوع جدير بأن يطلع عليه القارئ وإني في الواقع كنت راغباً الرغبة كلها في حضور تلك الجلسة ولكن الذي منعني من ذلك هو أني كنت في صحبة الشاعر الأردني ماجد المجالي، وقد جئت معه إلى مجلس الغبان لأنه كان راغبا في أن يلتقيه، ولكن الأستاذ الغبان اعتذر عن استقباله لأنه كان مريضاً لا يستطيع أن يقوم بالواجب كما ينبغي لاستقباله، ولهذا اضطررت أنا والشاعر المجالي أن نترك حضور الجلسة بكل أسف!.

1- نشرته جريدة الجمهورية /العدد 8124/الأحد 23 شباط 1992/20 شعبان 1412/ الصفحة السابعة.

حدثني بعض الذين حضروا الجلسة أنه جرى فيها جدال قوي بين الشيخ جلال الحنفي والدكتور علي الوردي، وهو يشبه ذلك الجدل الذي نشب بينهما سابقاً حول المنطق الأرسطي وعلم الباراسايكولوجي، وكانت نتيجة هذا الجدل كنتيجة الجدل السابق، أي أنه انتهى بانتصار الحنفي وفشل الوردي. كان الجدال في هذه الجلسة يدور حول نظام الحكم في الإسلام وهل هناك فرق فيه بين عهد الخلافة الراشدة والعهود التالية، فالوردي له رأي معروف في هذا الموضوع تطرّق إليه في كتبه السابقة، كما أن له كتاباً خاصاً بهذا الموضوع لم يصدر بعد وهو ينتظر الفرصة المواتية لإصداره.

خلاصة رأي الوردي في هذا الموضوع، كما حدثني به أن الإسلام جاء بأول حكومة ديمقراطية في تاريخ العالم، وهي الحكومة التي تمثلت في الخلافة الراشدة، ولكن هذه الحكومة لم تدم سوى ثلاثين سنة فقط، فقد كان عمرها قصيراً جداً، وسبب ذلك أنها جاءت قبل أوانها، فالديمقراطية الحديثة إنما ظهرت في العصر الحديث بعد توافر شروطها الثقافية والاجتماعية. أما ديمقراطية الخلافة الراشدة فهي جاءت في زمن لم تكن تلك الشروط متوافرة فيه[1].

يقول الوردي إن الخلافة الراشدة تميزت بصفات لم تعهدها في أية حكومة قديمة منذ ظهور الدولة في تاريخ البشر قبل ستة آلاف

1- نشرنا في ملحق هذا الكتاب مختصراً لرأي الوردي حول هذا الموضوع كما ورد في كتابه (مهزلة العقل البشري).

سنة حتى ظهور الديمقراطية الحديثة، ويركز الوردي نظره على اثنتين من تلك الصفات على النحو الآتي:

١ ـ كان الخليفة الراشد ليس له من بيت المال سوى راتب محدود يكفيه لمعيشة متوسطة. أما بقية المال فكانت توزع على المسلمين أو تنفق على شؤونهم العامة، وإذا ظهرت على الخليفة أية بادرة تدل على أنه تصرف ببيت المال أكثر من راتبه جابهه المسلمون بالاعتراض والانتقاد[1]. ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا أمر لم نعهده في أية حكومة قديمة لأن الحاكم القديم كان يتصرف بأموال الدولة كما يشتهي فيعطي منها من يشاء ويحرم منها من يشاء من دون رادع أو رقيب.

٢ ـ كان الخليفة الراشد لا يستطيع معاقبة أي معارض فيما يفعل أو يقول إلا في حدود الشريعة الإسلامية، ولهذا رأينا المعارضين في عهد الخليفة عثمان يصرخون في وجهه أو يقذفونه بالأحجار ويكسرون عصاه.

ويعلق الوردي: لو أن أي حاكم من حكام الدول القديمة رأى أحداً من رعاياه يصرخ في وجهه أو يقذفه بالحجارة لما تردد أن يأمر الجلاد بقطع رقبته هو وجميع أعوانه وربما أقرباءه أيضاً.

1- في كتب التراث الإسلامي قرأنا حكاية ثوب عمر بن الخطاب الذي كان طويلا فأثار استغراب أحد المسلمين وغضبه لان الأثواب التي وزعت كانت ذات حجم لا يكفي جسد عمر الطويل، فاضطر لتقديم كشف مالي عن ذلك بان أوضح على المنبر أنه استعمل ثوب ابنه ليحصل على ثوب مكتمل.

بين الحنفي والوردي

كان رأي الوردي الذي أبداه في مجلس الغبان يدور ضمن هذا الإطار فهو يرى أن الخلفاء الذين تولوا الحكم بعد الخلافة الراشدة، باستثناء عمر بن عبد العزيز، كانوا لا يختلفون كثيراً عن حكام الدول القديمة من حيث تصرفهم ببيت المال أو معاملتهم للرعية.

وقد ذكر الوردي في المجلس نقلاً عن الدكتور أحمد أمين أن الرشيد كان لديه ألفان من الجواري، وكذلك نقل المسعودي في كتابه «مروج الذهب» إن المتوكل كان لديه أربعة آلاف جارية.

ولكن الحنفي لم يوافق على هذا الرأي، ففي رأيه أن خلفاء بني العباس لم يكونوا يختلفون عن الخلفاء الراشدين من حيث تصرفهم ببيت المال أو معاملتهم للرعية واتهم الحنفي الدكتور أحمد أمين بالكذب، كما قال عن الأخبار التي ذكرها المؤرخون عن ترف الخلفاء العباسيين ومباذلهم بأنها غير صحيحة أو هي مبالغات لا يعتد بها.

ومما يلفت النظر أن الحنفي نقل عن بعض المؤرخين أنهم عندما يذكرون الخلفاء العباسيين في كتبهم يقولون «صلى الله عليهم وسلم» وهذا في رأي الحنفي هو ما يجب أن يقال عند ذكر أولئك الخلفاء.

وقد اشتد الجدل بين الوردي والحنفي على اثر ذلك مما دفع الوردي إلى الخروج من المجلس، وبعد خروجه من المجلس أسرع بعض الحاضرين إلى مكتبة الغبان الخاصة التي كانت قريبة منهم وأخرجوا منها كتاباً لأحد المؤرخين وهو يؤيد رأي الحنفي، إذ وجدوا في الكتاب أنه يقول عن بعض الخلفاء العباسيين «صلى الله عليهم وسلم».

وفي يوم الأحد ١٩٩٢/٢/١٦ ، أي بعد أسبوع واحد من انعقاد تلك الجلسة ظهرت جريدة «القادسية» وهي تضم الحقل الخاص بالحنفي كالمعتاد، وقد أشار الحنفي فيه إلى تلك الجلسة كما تطرق إلى رأي الوردي في الخلفاء العباسيين وانتقده، إذ قال في ذلك ما نصه:

«وفي أحد المجالس المحترمة قال الباحث الاجتماعي الدكتور علي الوردي إن هارون الرشيد كانت لديه عشرون ألف جارية، ثم راح في ضوء هذه المقولة يثلب الخليفة ثلباً قاسياً وفق حجم جواريه، وإنه كائناً ما كان أمر الرجل المثلوب فإننا لا نقرّ مبدأ الحكم على الأشخاص باتخاذ مبالغات المؤرخين ونقلة الأخبار أساساً للاتهام والتجريم»[1].

1- عدّ الوردي ما قاله الحنفي تحريضاً للحكومة ضده، وكان الوردي محقاً فقد سبق أن اشتكى عضو قيادي في اجتماع على مستوى رفيع من الوردي لذكره امتلاك الرشيد هذا العدد من الجواري، وهذا الكلام منشور في كتاب محدود التداول عن التعددية الحزبية صدر عن ذلك الاجتماع. ولكن الوردي كان يقول ساخراً: إن الرشيد لديه 2000 جارية أو 4000 جارية في رواية أخرى، وكان يبكي من خشية الله، وأنا لو أعطوني جارية واحدة لقتلت نفسي من خشية الله.

في الجلسة التالية

إني أردت أن أكون محايداً في هذا الموضوع الذي ثار حوله الجدل، فذهبت إلى مجلس الغبان في جلسته المنعقدة مساء الأحد ١٦/٢/١٩٩٢ وكنت أحمل معي بعض الأسئلة التي أردت توجيهها للحنفي لكي أعرف أجوبته عليها.

أول سؤال وجهته إلى الحنفي هو حول ما ذكره في جريدة «القادسية» من أن الوردي قال في المجلس أن الرشيد كانت لديه عشرون ألف جارية، فإني أعرف أن الوردي ذكر في كتبه أن عدد جواري الرشيد ألفان وليس عشرين ألفاً، كما أني سمعت الوردي في كلمة له ألقاها في قاعة الإدريسي في كلية الآداب وهو يقول فيها إن جواري الرشيد هو ألفان فقط، فكان جواب الحنفي على سؤالي هذا إنه متأكد من أن الوردي قال في المجلس عشرين ألفاً وليس ألفين.

والسؤال الثاني الذي وجهته إلى الحنفي هو عن قوله إن الخلفاء العباسيين يجب أن يقال عنهم «صلى الله عليهم وسلم» فكان جوابه انه لم يقل بوجوب الصلاة والسلام عليهم الآن، بل هو واجب في القرن الرابع الهجري فقط لأن الظروف في ذلك القرن كانت تقضي بذلك.

وكان طلبي الأخير من صاحب المجلس أن يريني الكتاب الموجود في مكتبته الخاصة والذي ذكر مؤلفه الخلفاء العباسيين مع عبارة «صلى الله عليه وسلم» فرفض صاحب المجلس إجابة طلبي مع الأسف.

الموقف الأخير

ذهبت إلى الوردي أسأله عن موقفه الذي استقر عليه بعد الذي جرى، فأبدى أسفه الشديد، وهو يعلن اعتذاره للحنفي ولصاحب المجلس ورواده، فإن الجدال الذي قام به في المجلس كان لا داعي له، وكان ضرره أكثر من نفعه.

ويقول الوردي إن نظام الحكم في الإسلام موضوع طويل ومعقد وليس يكفي للبت فيه جلسة واحدة أو جلسات عدة، وقد قرر الوردي أن يؤجل الجدال فيه إلى أن يصدر كتابه الذي أعده فيه، وهو كتاب قد لا يرضى عنه الكثيرون، ولعل من الأفضل صدوره بعد موت المؤلف الذي هو قريب إن شاء الله، كما يقول.

ويكرر الوردي إبداء اعتذاره وأسفه من الجميع، وهو يقول إنه عند خروجه من المجلس في الجلسة الأولى أعلن أنه لن يحضره مرة أخرى، وأن ذلك كان تسرعاً وخطأً منه، فهو سوف يعاود الحضور إلى مجلس الغبان كلما تيسر له ذلك لكي يستفيد من المناقشات العلمية والأدبية التي تجري فيه، ولكنه مع ذلك سوف يحاول

تجنب المشاركة في تلك المناقشات بمقدار جهده، وأنه سوف يكتفي بالاستماع إلى المناقشات بدلاً من المشاركة فيها.. والله المستعان على كل حال.

ديمقراطية الخلافة الراشدة والديمقراطية الحديثة (١)

تحدثت في الحلقة الماضية عما جرى في مجلس الأستاذ محمد جواد الغبان من جدال بين الشيخ جلال الحنفي والدكتور علي الوردي حول نظام الحكم في الإسلام.

ويبدو أن هذا الجدال نال اهتماماً غير قليل من القراء، إذ وردتنا منهم رسائل كثيرة يستفهمون بها عنه أو يبدون رأيهم فيه، وهذا يشبه ما جرى من اهتمام القراء بالجدال السابق بين الحنفي والوردي حول علم الباراسيكولوجي والمنطق الأرسطي.

ومما يلفت النظر أن موضوع نظام الحكم في الإسلام الذي جرى الجدال عليه في مجلس الغبان لم يبق محصوراً في ذلك المجلس وحده، بل سرت عدواه إلى مجالس أخرى ولاسيما مجلس الدكتور عبد الحميد الهلالي الذي ينعقد في ضحى الجمعة عادة، ففي هذا المجلس دار الجدال حول الموضوع نفسه في جلستين، أولاهما في يوم ١٩٩٢/٢/١٤، والثانية في يوم ١٩٩٢/٢/٢١، وقد تيسر لي أن

1- نشرته جريدة الجمهورية /العدد 8129/الأحد 29 شباط 1992/26 شعبان 1412/ الصفحة السابعة.

أحضر الجلستين وأسجل بعض رؤوس الأقلام عنهما، وأحاول الآن ذكر ما دار فيهما بإيجاز.

ومن الجدير بالذكر أن الجدال في مجلس الهلالي يختلف في بعض النواحي عنه في مجلس الغبان، ففي مجلس الغبان يكون الجدال في بعض الأحيان حاداً وترتفع فيه الأصوات، أما في مجلس الهلالي فالجدال يكون هادئاً عادةً ولا تدخل فيه القضايا الشخصية إلا نادراً، وقد لاحظت في الجلسة الأخيرة من مجلس الهلالي أنها كانت منظمة تنظيماً يستحق التقدير، إذ تداول فيها المتجادلون الكلام حسب تسلسل زمني محدد، وهي بذلك أصبحت أقرب إلى النقاش العلمي منها إلى الجدل الخصامي.

وهناك ناحية أخرى من نواحي الاختلاف بين مجلس الغبان ومجلس الهلالي، وهي أن أكثر الحاضرين يقفون إلى جانب الحنفي في جداله. أما في مجلس الهلالي فإن أكثر الحاضرين أو كلهم تقريباً لا يميلون إلى جانب دون الآخر، فهم يحاولون المناقشة بروح الحياد والموضوعية بقدر الإمكان.

جرى النقاش في الجلسة الأولى من مجلس الهلالي التي انعقدت في ١٩٩٢/٢/١٤ حول الرأي الذي أبداه الدكتور الوردي في مجلس الغبان حول نظام الحكم في الإسلام،

وهو الرأي الذي أشرت إليه في الحلقة الماضية وفحواه أن الإسلام جاء بأول ديمقراطية في تاريخ العالم وهي الديمقراطية التي تمثلت في الخلافة الراشدة، إذ كان الخليفة ليس له من بيت المال سوى راتب محدود. أما بقية المال فكانت توزع على المسلمين أو تصرف على شؤونهم العامة، وكذلك كان الخليفة لا يستطيع أن يعاقب أي معارض له إلا في حدود ما تسمح به الشريعة الإسلامية، وحين نقارن هذا بما كان يجري في جميع الدول القديمة من حيث تصرف الملك بأموال الدولة أو معاملته لمعارضيه نجد فرقاً كبيراً لا يمكن تجاهله.

كان أكثر المتناقشين في مجلس الهلالي يؤيدون هذا الرأي في اتجاهه العام، ولكن بعضهم أثار نقطة لها أهميتها في هذا الصدد وهي الفرق بين الديمقراطية الراشدة والديمقراطية الحديثة، فهاتان الديمقراطيتان تتشابهان من بعض النواحي ولكنهما تختلفان من نواح أخرى، وهذا أمر طبيعي لأن كلّ ديمقراطية لها طابعها الخاص بها تبعاً للظروف التي نشأت فيها وطبيعة المجتمع الذي ظهرت فيه.

يجب أن لا ننسى أن الديمقراطية الحديثة ليست كاملة وأن فيها عيوباً كثيرة، ولكنها مع ذلك أفضل من نظام الاستبداد القديم، ويمكن أن نقول هذا عن الديمقراطية الراشدة فهي مهما قيل فيها لابد أن تكون متميزة بالنسبة إلى عصرها، فالمسألة إذن نسبية وليست مطلقة.

الفرق بين الديمقراطيتين

اعترف الجميع في المجلس بأن هناك فروقاً لا تنكر بين الديمقراطية الحديثة والديمقراطية الراشدة، وقد جرى النقاش حول أحد هذه الفروق وهو في شأن الرئيس الحاكم.

ففي الديمقراطية الحديثة يجري اختيار الرئيس الحاكم عن طريق التصويت العام، بينما هو في الخلافة الراشدة كان محصوراً في فئة معينة من المسلمين هم المهاجرون والأنصار، وهذا هو ما أشار إليه الإمام علي في إحدى رسائله إلى معاوية كما ورد في كتاب «نهج البلاغة».

وقد أُحضر كتاب «نهج البلاغة» إلى المجلس لأنه كان موجوداً في مكتبة الهلالي الخاصة التي كانت إلى جانب المجلس، وقرأت فيه نبذة من تلك الرسالة وهذا نصها:

«إنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن أجمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضا، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولّى».

إن ما قاله الإمام علي في هذه الرسالة له دلالته الواضحة وهي أن المهاجرين والأنصار هم وحدهم الذين يعيّنون الخليفة ببيعتهم

له ولا يجوز لأحد غيرهم أن يعترض على ذلك، وحين نقارن ذلك بما جرى في نظام الحكم الذي جاء بعد الخلافة الراشدة نجد فرقاً كبيراً، لأن الحكم عند ذاك أصبح وراثياً يتعين بقرار من الخليفة السابق ولا يجوز الاعتراض عليه.

جرى النقاش في المجلس حول السبب الذي جعل اختيار الخليفة الراشد محصوراً في المهاجرين والأنصار دون غيرهم، وقد حاول الوردي الجواب عن هذا السؤال، فكان رأيه أن المجتمع الإسلامي في عهد الخلافة الراشدة يختلف عن المجتمع في البلدان الديمقراطية الحديثة، فقد كان المجتمع في عصر الخلافة الراشدة قريب العهد بالإسلام، ويجب أن لا ننسى أن الإسلام عند ظهوره قاومه أكثر الناس ولم يدخل فيه سوى فئة قليلة منهم هم الذين أطلق عليهم اسم «المهاجرين والأنصار» فهؤلاء دخلوا الإسلام عن إيمان به لأنهم لم يكونوا يأملون من ورائه نفعاً دنيوياً، ولكن الإسلام عندما انتصر أخيراً ودانت له الدنيا صار الناس يدخلون فيه أفواجاً أفواجاً.

إن أكثر الذين دخلوا الإسلام بعد انتصاره كانوا من البدو وهم الذين سماهم القرآن «الأعراب».

أما في الديمقراطية الحديثة فالأمر مختلف فإن المواطنين فيها ينظر إليهم كلهم بنظرة واحدة ويجب أن يعاملوا على أساس المساواة التي لا تفريق فيها، فهم جميعاً قد نشأوا منذ طفولتهم على الديمقراطية، وليس فيهم من هو مؤمن بها أو غير مؤمن.

في داخل كل منا نيرون [1]

ذكرت في الحلقة الماضية أن الجدال حول نظام الحكم في الإسلام جرى في مجلس الدكتور عبد الحميد الهلالي في جلستين أولاهما في ١٩٩٢/٢/١٤ والثانية في ١٩٩٢/٢/٢١، وقد تحدثت عما جرى في الجلسة الأولى وأحاول الآن أن أتحدث عما جرى في الجلسة الثانية.

دار الجدال في الجلسة الثاني حول الأخبار التي ذكرها بعض المؤرخين حول ترف الخلفاء غير الراشدين، وكثرة بذلهم الأموال في شراء الجواري وبناء القصور والإنعام على الشعراء والمغنين وأمثالهم.

وكان مما ذكر في الجلسة نقلاً عن المسعودي في كتابه «مروج الذهب» أن المتوكل أنفق على تشييد قصرين من قصوره في سامراء أكثر من ألف ألف درهم، أي أكثر من مئة مليون درهم، وهذا مع العلم أن الدرهم كانت له قيمته في تلك الأيام، إذ كان العامل فيها يكدح طيلة النهار مقابل نصف درهم أو أقلّ منه.

1- نشرته جريدة الجمهورية /العدد 8135/ السبت 7 إذار 1992/3 رمضان 1412/ الصفحة السابعة.

والملاحظ أن المسعودي حين ذكر ذلك المبلغ الضخم في تشييد القصرين قال«يقال»، ومعنى هذا أن المسعودي لم يكن متأكداً من صحة الرواية التي ذكرها، وهذا يشبه ما قاله عند ذكره لعدد جواري المتوكل، إذ قال في ذلك ما نصّه:

ويُقال إنه كان له أربعة آلاف سرية وطأهن كلهن، ومات وفي بيوت الأموال أربعة آلاف ألف دينار وسبعة آلاف ألف درهم، ولا يعلم أحد في صناعته في جد ولا هزل إلا وقد حظي في دولته وسعد بأيامه ووصل إليه نصيب وافر من ماله».

إن بعض الحاضرين في المجلس عدّوا ما ذكره المسعودي نوعاً من المبالغات التي اعتاد عليها المؤرخون قديماً، ولكن بعضهم الآخر رأى فيما يذكره المسعودي شيئاً من الصحة على كل حال، وكان دليلهم في ذلك أن القصور التي شيّدها المتوكل في سامراء ما زالت آثارها باقية ويستطيع أي واحد أن يذهب إليها لكي يراها رأي العين.

رأي الأستاذ مخلص

كان من بين الحاضرين في مجلس الهلالي الأستاذ جاسم مخلص، وقد أبدى في هذا الموضوع رأياً له أهميته، فهو يقول إننا لا يجوز أن نطلب من المتوكل أن يعيش في بيت متواضع مبني من الطين على نحو ما كان يفعل عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب، فالدنيا في عهد المتوكل تغيرت، واتسعت الحضارة وكثرت الأموال.

ثم قال إن ملوك الدول القديمة كانوا كلهم يشيدون القصور الباذخة التي تبذل عليها الملايين، خذ على سبيل المثال إيوان كسرى الذي شيده لسكناه والذي ما زالت بقاياه مشهودة، فلماذا يُنتقد المتوكل على قصوره ولا يُنتقد كسرى؟!.

إن هذا الرأي الذي جاء به الأستاذ جاسم مخلص وافق عليه أكثر الحاضرين في المجلس، وقد وافق عليه الدكتور الوردي أيضاً واتخذه دليلاً على صحة ما قاله هو في الجلسة الماضية وهو أن الخلفاء غير الراشدين لم يكونوا يختلفون عن ملوك الدول القديمة من حيث تصرفهم بأموال الدولة أو معاملتهم للرعية.

إن الوردي يصرّ على رأيه في أن الخلافة الراشدة هي وحدها التي تمثل الإسلام في حقيقته. أما الخلفاء الذين جاءوا بعدها فهم ملوك كغيرهم من الملوك القدامى.

هناك حديث منسوب إلى النبي محمد ﷺ وقد أورده الوردي في المجلس وهو «الخلافة من بعدي ثلاثون ثم يأتي بعدها الملك العضوض»، فهذا الحديث في رأي بعض المحدثين غير صحيح ولكنه على أية حال يمثل الواقع الفعلي الذي حدث في تاريخ الإسلام.

وأورد الوردي في هذا الشأن قولاً للكاتب البريطاني المعروف ويلز في كتابه «مجمل التاريخ»، فويلز حين يأتي على ذكر القيصر الروماني الطاغية نيرون يقول «نحن كلنا نيرون لو كنا نعيش في

مثل ظروفه» ويقصد ويلز من ذلك أن أي واحد منا لو توافرت لديه الأموال التي توافرت لدى نيرون وهو لا يجد أمامه أي رقيب أو معارض يردعه عما يفعل، لانغمس في إشباع شهواته ورغباته على نحو ما فعل نيرون.

إن الحاكم الديمقراطي الحديث لا يستطيع أن يكون مثل نيرون لأن المعارضة واقفة له بالمرصاد تبحث عن مساوئه وتعلنها على الناس، وهو يعلم علم اليقين أن هذه المساوئ التي تعلن عنه سوف تسقطه عن منصب الحكم عندما يجري التصويت عاجلاً أو آجلاً.

رأي الدكتور الصافي

إن الدكتور علي الصافي يعد من الرواد المزمنين لمجلس الهلالي وذلك لما بينهما من علاقة قوية تمتد إلى ثورة مايس ١٩٤١، إذ شاركا فيها.

ويقال إن مجلس الهلالي لا يتم إلا بحضور الدكتور الصافي، وهذا هو ما يردده الوردي دائماً في المجلس.

أبدى الدكتور الصافي في تلك الجلسة رأياً له أهميته أيضاً، وهو فيما يخص علاقة الدين بالدولة في الإسلام، ففي رأي الصافي أن الإسلام دين فقط له مبادؤه وتعاليمه، ثم ظهرت الدولة فيه أخيراً لأسباب طارئة.

وقد علّق الوردي على هذا الرأي لأنه كان قد تطرق إليه في الأطروحة التي قدمها للدكتوراه في جامعة تكساس في العام ١٩٥٠ ففي رأي الوردي أن النبي محمد ﷺ كان في المرحلة المكية من دعوته لا يختلف عن المسيح من حيث إرشاد الناس إلى عبادة الله والأخلاق الفاضلة، ولكن الفرق بينهما جاء من كون المسيح قد قتل قبل انتصاره في دعوته فتولى أتباعه التبشير بدعوته بعده. أما النبي محمد ﷺ فقد قدر الله له الانتصار بعد هجرته إلى المدينة، ولو أنه كان قد قتل في أثناء اختفائه في الغار مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه أي في طريق هجرته إلى المدينة لظل الإسلام ديناً مجرداً من الدولة على نحو ما حدث في المسيحية.

إن نجاح النبي في هجرته إلى المدينة وتوليه الحكم فيها كان بداية تشكيل الدولة في الإسلام، وهذا أمر طبيعي لابد منه، فالنبي في المدينة لابد له من أن ينظر في شؤون أتباعه من الناحيتين الدينية والسياسية معاً، ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد كيف أن أعداء الإسلام في ذلك الحين صاروا يعدون العدة لمهاجمة النبي وأتباعه في المدينة محاولين القضاء عليه وعلى دينه، وبذا كان النبي مضطراً أن يتخذ في المدينة دور الحاكم والنبي معاً، ولولا ذلك لتمكن أعداء الإسلام من القضاء عليه وهو في مهده.

نقطة أخرى

وهناك نقطة أخرى أثيرت في مجلس الهلالي حينذاك هي عن الدولة الإسلامية عندما تحولت إلى دولة فاتحة، إذ دخلت تحت حكمها شعوب غير عربية كثيرة كالفرس والترك والهنود والزنوج وغيرهم، وهنا يواجهنا لغز اجتماعي في حاجة إلى حل.

فالملاحظ أن الشعوب المفتوحة التي دخلت تحت حكم الدولة الإسلامية دخلت في دين الإسلام بعد زمن غير طويل، فما هو السبب الذي جعلها تفعل ذلك؟

فالمعروف عن أي شعب مفتوح في أية مرحلة من مراحل التاريخ أنه يكره الدولة الفاتحة ويحمل الحقد عليها وهو إذن لا يمكن أن يدخل في الدين الذي جاءت به تلك الدولة.

وكان للوردي رأيه في هذه النقطة لأنها تدخل في موضوع اختصاصه وقد تطرق إليها في اطروحته أيضاً، وخلاصة رأيه أن الإسلام لم يأت لتأسيس دولة من طراز الدول القديمة التي زخر بها التاريخ فهو دين قبل أن يخل نظام الحكم فيه وهو ظل يحمل المبادئ المثالية التي بشر بها في بداية دعوته، ولهذا نجد الإسلام في الوقت الذي ساعد على تأسيس دولة فاتحة ساعد أيضاً على تحريض الناس على الثورة على تلك الدولة، فتاريخ الإسلام إذن له جانبان: جانب تأسيس الدولة وجانب الثورة عليها، وبعبارة أخرى: إن تاريخ الإسلام مليء بالفتوحات من جانب ومليء بالثورات من الجانب الآخر.

جدال يثيره الوردي حول الاستنجاء[1]

مجلس الغبان كما أسلفنا ترتاده شخصيات فكرية وأدبية وعلمية، فتجد فيه الأطباء والشعراء والباحثين وعلماء الدين والصحفيين، ولكننا لم نذكر أن من ميزات هذا المجلس أنه يفسح المجال لرواده بتلاوة ما قرأوه خلال الأسبوع الذي يفصل بين جلستين من جلساته إذا شعروا أن فيه جدة أو قضية يمكن مناقشتها في المجلس.

وفي جلسة مساء الأحد ١٧/١١/١٩٩١ حدث جدل استمر ساعتين، وهو جدل له مغزاه الاجتماعي والثقافي، كما أنه جدير بأن يعرف عنه القراء شيئاً.

كان الوردي هو السبب الرئيس في إثارة هذا الجدال حين أبدى رأيه الذي يكرره كثيراً وهو أن الفقهاء صعبوا الدين الإسلامي وعقّدوه بحيث جعلوه أصعب دين على وجه الأرض، وقد خالفه في هذا الرأي أكثر الحاضرين.

1- لم ينشر هذا الموضوع وبقي بين أوراق رئيس التحرير الذي ظن أن فيه تعريضاً لشخصية قيادية كبيرة.

جاء الوردي بمثل واقعي لتأييد رأيه في موضوع التغوط، فقد ورد عن النبي محمد ﷺ أنه كان يستنجي بالأحجار عند التغوط في بعض الأحيان، وجاء الفقهاء أخيراً فوضعوا له بعض القواعد التصعيبية فقد كتب أحد الفقهاء الكبار في كتاب له ما نصه: «وأما موضع الغائط فإن تعدى المخرج تعيّن غسله بالماء، وإن لم يتعد المخرج تخير بين غسله أو مسحه بالأحجار أو الخرق أو نحوهما».

إن السؤال الذي يواجهنا هنا كيف يمكن للمتغوط أن يعرف هل تعدى الغائط المخرج أم لا؟ وكان جواب الحاضرين أو بعضهم إن المتغوط قادر أن يعرف ذلك شعوراً أو بلمس اليد.

يقول الوردي إن هذا جواب يثير العجب، فالمعروف عن النبي ﷺ أنه حين كان يتغوط كان يلتقط الأحجار للاستنجاء بها عند التغوط لم يكن يهتم بهذه القاعدة التي وضعها الفقهاء، فهو كان يستنجي بالأحجار بغض النظر عما إذا كان الغائط قد تعدى المخرج أم لم يتعده.

والمعروف عن النبي ﷺ أنه عند خروجه للخلاء خارج البيوت لم يكن يحمل الماء لكي يكون مخيراً بين استعماله أو عدم استعماله.

يقول الوردي: إن هذا في رأيي نموذج للتعقيد الذي جاء به الفقهاء في الدين، وقد ذكرت في معرض الجدل مع الحاضرين كيف أن المتزمتين من المسلمين يعانون الكثير من المشقة عندما يسافرون

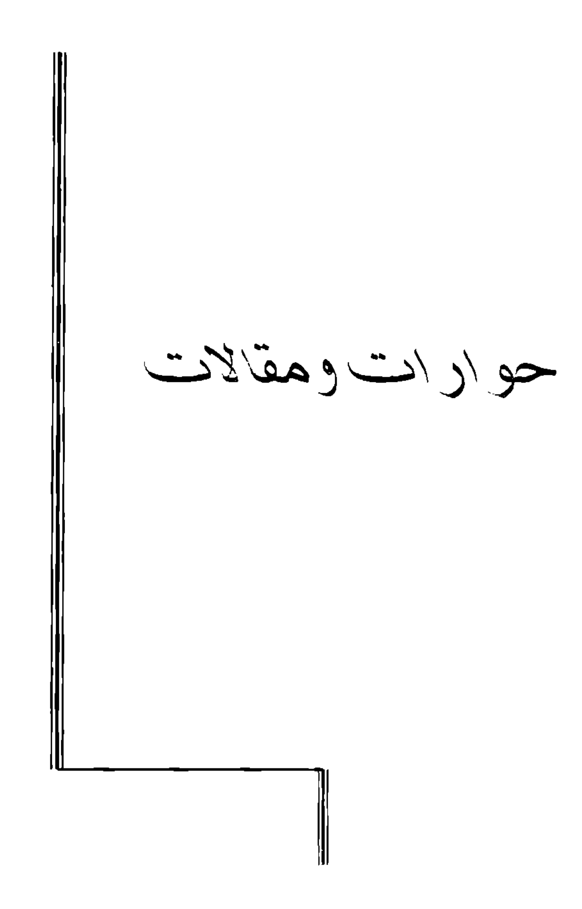
إلى الخارج ويسكنون في بيوت أو فنادق ليس فيها مراحيض من النوع الذي يمكن الاستنجاء بالماء فيها، فهم يعذبون أنفسهم كما يقذرون مراحيض البيوت أو الفنادق التي يسكنون فيها، وقد أساء ذلك إلى سمعة الإسلام في الخارج من بعض الوجوه.

إن هذا الاختلاف في وجهتي النظر أدى إلى استفحال الجدال بين الوردي وبين الحاضرين، فلم يستطع أن يقنعهم بصحة رأيه كما أنهم لم يستطيعوا أن يقنعوه بصحة رأيهم، فالدليل الذي كان الوردي يعدّه قوياً واضحاً من وجهة نظره، كان ضعيفاً واهياً من وجهة نظرهم، وهذا هو شأن الجدل الذي ينشب بين البشر في كل زمان ومكان.

يقول الوردي: إن الجدل من هذا النوع، كما اتضح الآن علمياً، يضرّ أكثر مما ينفع، أو هو يضر ولا ينفع، لأنه يثير الشحناء من دون أن تكون له نتيجة مجدية، فكل فريق من المتجادلين يظل مصراً على رأيه، أو هو يزداد تمسكاً به كلما طال الجدال بينهما.

وهذا هو ما رأيناه واضحاً في جميع المجادلات الكلامية والطائفية التي نشبت بين الناس قديماً، وما زالت تنشب بينهم حتى الآن، فكل فريق منهم ظل معتقداً بصحة رأيه، وذهبت مجادلاتهم الطائلة سدى.

وعندما ذكّرت الوردي بالقاعدة الذهبية التي يرددها على الدوام وهي «اكسب الجدل بأن تتجنبه» التفت إليّ وقال: إني كنت أعرف هذا، وكنت أحاول تجنب الجدل في كل مجلس أحضره بمقدار جهدي، ولكنني في هذه المرة لم أستطع أن أملك زمام أمري، فبقيت أواصل الجدل معهم، وارتفع صوتي كمثل ما ارتفعت أصواتهم، وكان ذلك خطأً مني، وقد ندمت عليه ودعوت الله أن لا أخوض مثل هذا الجدل.



حوارات ومقالات

ملحق ١

مجلس الخاقاني يحتفل بعيد ميلاد الوردي [1]

لأول مرة بعد ثمانين عاماً أطفأ الدكتور علي الوردي الشموع وقطع كيكة الميلاد في أول احتفال يُقام بمناسبة عيد ميلاده في مجلس أدبي من مجالس بغداد.

فقد احتفى عدد من أدباء من أدباء بغداد ومفكريها وعلمائها ووجوهها الاجتماعية وصحفييها وسط أجواء احتفالية بهيجة بعيد الميلاد الثمانين للدكتور علي الوردي في مجلس الشيخ عيسى الخاقاني يوم الاثنين أول أيام عيد الأضحى المبارك.

ولم تجر العادة في السابق على الاحتفال بعيد ميلاد الوردي لأنه يتضايق كثيرا من مثل هذه المظاهر وما يرافقها من كلمات إطراء وقصائد مديح ومقالات ثناء.. إلا أن السيد محمد نجل الشيخ عيسى الخاقاني عميد المجلس المذكور توجه بالسؤال إلى الدكتور حسين علي محفوظ عن يوم ميلاد الدكتور علي الوردي فأجابه بأنه سمع من جداته أن الوردي ولد ليلة عيد الأضحى من سنة ١٩١٣، فقرر الخاقاني أن يفاجئ الوردي بهذا الاحتفال.

1- نشرته جريدة الجمهورية /العدد 8490/الأربعاء 9 حزيران 1993/3 ذي الحجة 1413/ الصفحة السابعة.

ومعنى ما قاله الدكتور محفوظ أن الوردي بلغ الآن قرابة الثالثة والثمانين سنة قمرية من عمره المديد.

وعندما وصل الوردي إلى المجلس واستقر في مكانه المعهود يوم الاثنين أول أيام عيد الأضحى المبارك وبدأ برنامج الجلسة وتحدث محمد الخاقاني عن منهجية البحث لدى ديكارت وقال: «إننا عندما نقرأ ديكارت يقفز إلى أذهاننا اسم الدكتور علي الوردي وإنه مثلما احتفلت القاهرة بمرور ٨٠٠ سنة على ولادة مفكرها وفيلسوفها محيي الدين بن عربي فإن من واجب بغداد أن تحتفل بمرور ٨٠ عاماً على ولادة العلامة الدكتور علي الوردي).. عندما قال الخاقاني ذلك أيقن الوردي أنه وقع في فخ نصبه له الخاقاني، وحاول أن ينقذ نفسه، تماماً مثل عصفور وقع في شبكة صياد، فأعلن غضبه وسخطه على منظمي الحفل وقال بأنه لن يحضر هذا المجلس أبداً، وأراد أن يغادر المكان إلا أن الحضور أفلحوا بإجلاسه في مكانه مثلما أفلح الخاقاني في ما فشل فيه الآخرون.

وحسب بعض الحاضرين فإن الوردي أراد أن يداري إحراجه عندما قام لقطع كيكة الميلاد فأمسك بالسكين وانشغل بها عن قطع الكيكة، إذ أخذ يحدث الحضور عن إعجابه بها وبلونها ونوعيتها، ثم عندما طُلِبَ إليه أن يقطع الكيكة أعلن جهله بمثل هذه المراسيم، فتطوع أحد الحضور بإمساك يد الوردي الممسكة بالسكين وأمرّها

على الكيكة ثم أطفأ الجميع الشموع وصفقوا وجلس الوردي بعد أن أخذ حصته من الكيكة، التي وصفها بأنها (طيبة) ولم ينس أن يسأل عن سعرها، فقيل له إن الدكتور حسين علي محفوظ هو الذي أحضرها، وربما فهم الوردي بأن محفوظاً هو الذي حضّرها.. وقال: (ما كان أكو داعي لهذه الكيكة).

ومن سوء حظي أني لم أحضر هذا الحفل لوجودي خارج بغداد ولكني اتصلت بالوردي هاتفياً للاعتذار منه عن الضيق الذي سببه له العنوان الذي وضعته لحواري معه وهو (بماذا يختلف الوردي عن الشحاذ والمجرم؟) والذي نشر في هذه الصفحة أواخر الشهر الماضي، فقد هدد الوردي بعد اطلاعه على الموضوع بأنه سيرفع دعوى في المحكمة ضدي وأنه كلف أحد المحامين برفع هذه الدعوى.

وإني، والله، لم أكن أقصد الإساءة إلى شخص هذا العلامة الكبير والداعية المعروف لإنشاء علم اجتماع عربي وصاحب النظريات الاجتماعية المعروفة والمؤلفات التي ما زالت أصداؤها ترن في أذني الزمان ويتحدث عنها الناس كما لو كانوا يتحدثون عن كتب صدرت تواً، وكل ما في الأمر أني جريت وراء حاستي الصحفية فاستخرجت العنوان من نص إجابة الوردي عن أسئلتي، وكان العنوان مثيراً بالفعل وقد جلب انتباه الناس وأتاح لبعضهم، ومنهم

المحامي الذي كلفه الوردي، ذرائع لتحريض الوردي على العبد لله ولكني اتقيت غضب الوردي بحبه وطيبة قلبه ومعرفته بأني أحبه ولا يمكن أن أتعمد الإساءة إلى شخصه الكريم.. فاكتفى الوردي بأن قال لي عندما رآني (شنو هالخرابيط؟ والله انت فد يوم توكع توكع).. وقطع حديثه الغاضب فجأة وسألني بود: هل ستحضر إلى مجلس الخاقاني اليوم؟

ولابد أن الوردي تضايق أيضاً من تصرف الخاقاني وقال له كذلك: (شنو هالخرابيط).. فهو يكره أن يهتم به أحد ولا يحب أن يمدحه وإذا سمع كلمة مديح من أحد فأنه يطلق في وجهه كلمته الساخرة باللهجة المصرية (أيوه) بما يجعل المداح يكف عن مديحه له أبد العمر.. أفليس الوردي من يردد على الدوام: احثوا في وجوه المداحين التراب؟.. أو ليس هو أيضاً من ينتقد حاتم الطائي لقوله:

أماوي أن المال غاد ورائح

ويبقى من المال الأحاديث والذكر

فهو يقول: ما أهمية (الأحاديث والذكر) إذا كان الدود سيأكلنا عندما نموت؟

وهو يوم كتب الزميل حسين الشهربلي في جريدة «الثورة» مطالباً بتكريمه ومجموعة من العلماء والأساتذة العراقيين طلب مني أن

أنشر عن لسانه بأنه والحمد لله في غنى من الناحية المادية عن أية معونة، فلديه ما يكفيه في حياته وزيادة. أما من الناحية المعنوية فهو لا يقبل أي تكريم له بعدما عانى في سنواته الأخيرة من الإهانة وسوء المعاملة ما يكفي.

إن الوردي يعلن أمام أصحابه على الدوام أنه الآن بعد أن بلغ الثمانين من عمره لا يطلب تكريماً، بل هو يطلب بدلاً عن التكريم معاملة عادلة كغيره من الناس، فإن سوء المعاملة الذي عاناه مؤخراً أدى به إلى الابتلاء بأمراض جعلته يسأم الحياة والشكوى إلى الله.

ولمن يسأل: لماذا احتفل مجلس الخاقاني دون سواه بميلاد الوردي؟.. يقول السيد محمد الخاقاني: إن الجميع كانوا ينتظرون أن يكرم الوردي، وهو رجل قضى حياته في خدمة العلم في العراق، وتدرس كتبه في عدد من جامعات العالم المهمة، من قبل المؤسسات الثقافية أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي أو جامعة بغداد، في أقل تقدير، ولكن لما رأينا أن هذه الجهات جميعاً أدارت ظهرها للوردي وما يخص الوردي فقد قررنا أن نحتفل به نحن أصدقاءه ومحبيه.

وقد فات السيد الخاقاني - وهو المعروف بنباهته - أن المؤسسات الثقافية لو كانت تفكر، مجرد تفكير، بتكريم الوردي لوافقت على

طبع كتبه ونشرها بين الناس، بدل أن تباع الآن بأسعار خيالية جداً في مزادات الكتب، ولو أن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي أو جامعة بغداد كانتا تريدان الاحتفال بالوردي لكونه رائداً من رواد علم الاجتماع، بل من مؤسسي هذا العلم في العراق، لما سحبتا منه صفة الأستاذ المتمرس وقد حصل عليها بجهده وخدمته الطويلة للجامعة، ولو أن المجمع العلمي العراقي أراد إنصافه لوجدنا الوردي يحتل الآن كرسياً من كراسي هذا المجمع.

على أية حال، إني أهنئ الوردي بعيد ميلاده الثمانين متمنياً له عمراً مديداً وعطاء متواصلاً للعراق والأمة العربية.. راجياً أن لا يجد الوردي في هذا الموضوع أيضاً ذريعة للزعل عليّ، فإني، ويشهد القراء كلهم، لم أمدحه ولم أقل كلمة واحدة في الثناء عليه أو إطرائه، غير أني أقول إن الوردي عملاق من عمالقة العلم في هذا الزمان.

ما بعد نشر هذا الموضوع

في اليوم التالي لنشر هذا الموضوع في الجريدة أرسل في طلبي رئيس التحرير، وعندما دخلت إلى مكتبه وجدته مرعوباً لأنه لم يتسن له قراءة هذا الموضوع قبل نشره، ولم أجد مسوغاً لرعبه إلا أنه قال لي: إني انتظر مكالمة هاتفية تأمر باعتقالك..

كان رئيس التحرير خائفاً من هذا المقطع الذي ورد في الموضوع:

«ما أهمية (الأحاديث والذكر) إذا كان الدود سيأكلنا عندما نموت؟.

وهو يوم كتب الزميل حسين الشهربلي في جريدة «الثورة» مطالباً بتكريمه ومجموعة من العلماء والأساتذة العراقيين طلب مني أن أنشر عن لسانه بأنه والحمد لله في غنى من الناحية المادية عن أية معونة، فلديه ما يكفيه في حياته وزيادة. أما من الناحية المعنوية فهو لا يقبل أي تكريم له بعدما عانى في سنواته الأخيرة من الإهانة وسوء المعاملة ما يكفي.

إن الوردي يعلن أمام أصحابه على الدوام أنه الآن بعد أن بلغ الثمانين من عمره لا يطلب تكريماً، بل هو يطلب بدلاً عن التكريم معاملة عادلة كغيره من الناس، فإن سوء المعاملة الذي عاناه مؤخراً أدى به إلى الابتلاء بأمراض جعلته يسأم الحياة والشكوى إلى الله»

وقال لي رئيس التحرير إن الوردي يريد أن يقول بأنه يأنف أن يكرمه الرئيس صدام حسين وإنه يشكوه إلى الله.

وقد نفيت ما قاله جملة وتفصيلاً ولكنه لم يكن يصدق إلا ما يمليه عليه خوفه، وقد رنّ جرس الهاتف الرسمي فعلاً فأمسك به مرتجفا وهو يخاطب وزير الإعلام في حينه السيد حامد يوسف حمادي الذي طلب منه تزويده بعنوان الدكتور علي الوردي، فوضع

يده على سماعة الهاتف وقال لي بهمس: وسيعتقلون الوردي أيضاً، إلا أن المفاجأة التي جعلت رئيس التحرير يرتاح قليلاً هي أن الوزير قال له: سنرسل باقة زهور كبيرة مساهمة في الاحتفال بميلاد الوردي فهو أستاذنا.. فلم أملك إلا أن أقول له: ألم أقل لك أن لا مسوغ لخوفك يا أستاذ.

وفي العام التالي، وفي جلسة يوم الاثنين ١٩٩٤/٥/٢٠ لمجلس الخاقاني أقيم احتفال آخر بمناسبة عيد ميلاد الوردي تحدث فيه عدد من المفكرين والأدباء والمثقفين والباحثين، وقد ألقيت في الحفل كلمة أجد من المفيد أن أعرضها على القراء:

بسم الله الرحمن الرحيم

هو هادئ.. ولكنه مثير لأعتى العواصف..

يطلق كلمة واحدة تحسبها بريئة بسيطة فيتولد عنها جدل من ملايين الكلمات، ويبقى هو مستمعاً متفرجاً، هو الذي يدّعي أنه لا يسمع ولا يرى.

يُحسن المحاورة والمداورة والمناورة في الجدل.. يقارع الحجة بالحجة، والرأي بالرأي، والكلمة بالكلمة، لكنه إذا ما حوصر في زاوية ضيقة يعرف كيف يجد لنفسه مخارج واسعة ينفذ منها، ويضحك في عبّه على محاصريه الذين سيجدون أنهم لا يحاصرون، في الحقيقة، إلا ما طرحوه من آراء، وأنهم هم أنفسهم المحاصرون.

من مخارج الوردي التي يجدها، وأرجو أن لا أذيع سراً بذلك، أنه يقول إن ما طرح من آراء كان قد نقلها من غيره وأنه ما طرحها إلا لكي يسمع آراء المستمعين بها، وأفضل منافذه من الجدل هو الصمت والتجاهل متعكزاً على مقولة خالدة يرددها على الدوام، هي: اكسب الجدل بأن تتجنبه.

إذا أراد أحد أن يعثر على معنى واضح لكلمة (الدهاء) فلينظر إلى الوردي كيف يتصرف وكيف يتكلم.

إنه يبدي أنه لا يريد الشيء عندما يريده، وهو يبدي أنه يريد الشيء عندما لا يريد، وهو يبدي أنه يكره الأمر الذي يحبه ويرتاح إليه كمثل ما يبدي أنه يضيق بالأمر الذي يحبه.

يلحق (رضي الله عنه) بالرشيد أو المتوكل وهو يريد عكس ذلك، فيضحك من يلمس سخريته في هذا ويغضب من يجهل الأمر ويصدق من لا يقرأ ولا يكتب.

مما أتمناه أن أجده يوماً وهو يضحك، فهو عندما يلقي طريفة أو (نكتة) ينتظر من الآخرين أن يضحكوا، وهو عندما يستمع إلى طريفة أو (نكتة) يتصفح وجوه المستمعين ليقرأ تأثيرها فيهم، ويفكر كيف ستكون أصداؤها لدى المستمعين لو أنه هو الذي رواها، وحتى البسمة فإنه يصطنعها اصطناعاً، وهو بهذا على نقيض ما عليه صديقنا شامل الشمري (أبو عمار) الذي يضحك للنكتة التي

يرويها قبل أن يضحك الآخرين عليها ليصيبهم بعدوى ضحكته.

يحب المشي كثيراً لأنه يحب الحياة حباً جماً فهو يعتقد أن المشي يطيل العمر، وكذلك فإنه يتناول الأعشاب والعقاقير الطبية الشعبية، التي يصنع منها مزيجاً عجيباً غريباً هو وحده يعرف فائدته.. وربما هو أتقن هذا الفن العجيب من أيام اشتغاله عطاراً في مطلع حياته، والعجيب أن يخلط عطار فاشل خلطة من الأعشاب ناجحة!.

وهو لحبه الحياة جاءه مرة الباحث الدكتور كاظم مسلم العامري حاملاً رسالة من محافظ النجف الأشرف يسلم عليه فيها ويدعوه لزيارة النجف في أقرب فرصة سانحة ليسلمه هدية قرر أن يقدمها له هي قطعة أرض متميزة لإقامة مقبرة عائلية عليها في مقبرة وادي السلام الشهيرة في النجف، فما كان من الوردي إلا أن يرمي الرسالة في وجه الرسول ويقول له: بلغ محافظك أن الوردي يتنازل له عن المقبرة ليقبر فيها هو.

إن المحافظ كان يظن أنه أحسن صنعاً وأن الوردي سيفرح بهذه الهدية القيمة التي يتمناها أي عراقي حتى لو لم تكن قطعة أرض متميزة لأنها غالية الثمن، لكن الوردي لا يفكر كما يفكر الآخرون فهو يؤمن أن الإنسان مدفون بعمله.

ويواجه الوردي أعنف الهجمات التي تشن عليه بسخرية لاذعة

مستعيناً بقلمه وأسلوبه السهل الممتنع صامداً بهما أمام قصف الأدلة العقلية والنقلية، وقد يستعين بالطريفة يختلقها هو، وهي تحضره على الدوام ليهدم بهما قلاع المهاجمين ويحدث في تحصيناتهم ثغرات ينفذ منها إلى عقر دارهم.. وما وجدت أحداً يصنع الطرفة و(النكتة) بأسرع مما يصنعها الوردي، ثم أنه لا يضحك لها.

يقول الباحث الصحفي مهدي حمودي الأنصاري في جريدة العراق في ١٧/١٠/١٩٩٠ ما نصه:

«اشتجر الدكتور علي الوردي قلمياً على صفحات جريدة «الحرية» في خمسينات هذا القرن مع الأستاذ عبد الرضا صادق، مؤلف كتاب «سفسطة للبيع» وعند صدور كتابيه «الأحلام بين العلم والعقيدة» و«خوارق اللاشعور» هوجم العلامة علي الوردي من بعض حملة الأقلام، فخرج الوردي من هذه المعارك القلمية مخلفاً في المكتبة العربية والعراقية تراثاً علمياً واجتماعياً مقروءا، وانهزم ناقدوه».

لم أجد أحد من العامة يحبه، وهذا أمر طبيعي فهو قد هاجم ما بنوه لأنفسهم من اعتقادات وما ألفوه من عادات وما قدسوه من بدع وخرافات وما أسسوه من قناعات، ثم أنه لم يفكر بالطريقة التي فكر بها سواه، ولم يجامل أحداً، أو يبدو أنه، ولو لمرة واحدة، يظهر غير ما يبطن أو يبطن غير ما يظهر، وهو بعد ذلك جرئ في

طرح قناعاته وأفكاره في أي مكان وتحت أي ظرف وبين أية مجموعة من الناس.. لا يتوسل إلى حب الناس إلا بالعلم، من شاء أحبه ومن شاء نأى عن حبه.

والحق، فإن أعظم ما فيه هو إخلاصه لأفكاره ومعتقداته وقناعاته.. لم يخذلها بقول أو تصرف أبداً.

يعتب الجميع على الوردي أنه لم يكتب عن المجتمع العراقي في ظروف التحولات الكبرى التي أعقبت سقوط الحكم الملكي في العراق وقيام الجمهورية، ثم ظروف الحصار الاقتصادي القاسي الذي فرضته الأمم المتحدة على العراق وكان هو أحد ضحاياه، وبما أحدثته هذه التحولات من تغييرات حادة في بنية المجتمع العراقي وأخلاقه وعاداته وتصرفاته وتقاليده، وهو مؤلف (شخصية الفرد العراقي) و(خوارق اللاشعور) و(وعاظ السلاطين) و(مهزلة العقل البشري) و(دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)، والموسوعة الكبيرة ذائعة الصيت (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث)..

لم يكف هؤلاء السادة ما أنجزه الوردي من تثبيت لأركان علم الاجتماع الحديث في العراق، ولا ما أحدثه من هزات عميقة في الفكر العراقي ناشت حتى الجذور، وفات هؤلاء السادة أيضاً أن الوردي تقدم به العمر وجاوزت سنيه الثمانين، وأن على الجيل الجديد من المشتغلين في علم الاجتماع أن يبدأوا من حيث انتهى

هو وأن يتسلموا هم الراية ويمضوا بها قدماً، أم أن الوردي وحده المختص بهذا العلم، إذا توقف الوردي توقف هذا العلم؟

قساة محبوك الكثار فإنهم   يرونك إنْ لم تلتهب غير نافعِ

أمس مساءً، ذهبنا لمشاهدة مسرحية شعبية اسمها (بين مريدي ولندن) في قاعة دار السلام، وهي سينما الاعظمية سابقاً: العلامة الدكتور حسين علي محفوظ والحاج هادي بليبل والسيد عبد المطلب الأعرجي وأنا، وملأني السرور والفرح وأنا استمع إلى كلمة منصفة بهذا الصدد من الدكتور محفوظ وهو يشاهد المسرحية، قال: «أتمنى لو أن الوردي في شبابه الآن لكتب عن سوق مريدي وحلل لنا أخلاقيات ساكنيه والمتعاملين فيه وعاداتهم وتصرفاتهم وألفاظهم وسلوكياتهم».

قال محفوظ إنه تمنى (لو أن الوردي في شبابه الآن)، ولم يطالب الوردي بما لا يطيق ابن الثمانين.

والحق، إني لم أجد أحداً يحب الوردي مثلما يحبه محفوظ، ولم أرَ حرصاً مثل حرص محفوظ على الوردي ومكانته، حتى أنه يختار بعناية الألفاظ التي يخاطبه بها اختياراً جميلاً ليعظمه في نفوس الناس.. وبالمقابل فإن الوردي يحب محفوظاً مع اختلاف الطريقة التي يحب كل واحد منهما الآخر.

وأذكر أني التقيت الوردي أول مرة عن طريق محفوظ، وهذه معلومة تنفع من يلح على سؤالي: كيف تعرفت على الوردي ونشأت بينكما هذه العلاقة المتينة مع فارق العمر الكبير بينكما؟

إذا أردت أن أفصل هذا الأمر فمن الواجب أن أذكر أني تعرفت على كتب الوردي قبل أن أتعرف عليه شخصياً والتهمتها مثلما يلتهم الجائع طعاماً شهياً ومنه تعلمت كيف أكتب بأسلوب بسيط غير معقد بعد أن كنت أحسب أن أبقى الكتابات أعقدها وأصعبها.

وظل الوردي يتعملق في نظري كلما قرأت له أو سمعت حديثه حتى هذه الساعة، ففي كل يوم اكتشف من الجوانب العظيمة لشخصية الوردي جانباً أعظم من الذي اكتشفته قبلاً.. وهكذا.

ولما كنت أحلم أن أكون كاتباً فإني حلمت أن أرى الوردي وجهاً لوجه لا أن أكلمه.. ورأيته يوماً في الطريق وقد حمل عصاه يتوكأ عليها ويعتمر على رأسه قبعة رأسه السوداء (السدارة الفيصلية) في موقف لا يمكنني نسيان غرابته أبداً، فقد وقف الوردي وسط شارع مزدحم بالسيارات في مركز مدينة الكاظمية، أمام مرقد الشريف المرتضى وهو يسلم على أحد الأشخاص ويتحدث معه قاطعاً الطريق أمام السيارات التي توقفت رتلاً طويلاً تريد المرور وضجّ الشارع كله بزعيق منبهات صوتها من دون أن يبدو على الوردي أنه يهمه أمرها أو أنه طرف في هذا الزعيق العنيف الذي

ينطلق من السيارات.. وكل ما كان يهمه، كما يبدو، هو أن يكمل حديثه مع ذلك الشخص.

أهكذا يجب أن أفعل عندما أصبح كاتباً مشهوراً مثل الوردي؟!.

وفي منتصف السبعينات كان الوردي يزور مجلة (ألف باء) وكنت أحد محرريها فاستجمعت شجاعتي وتقدمت للسلام عليه، فنظر إليّ نظرة شزر وغضب يصطنعها في مثل هذه الحالات ولم يرد على سؤالي، وإنما سألني عن غرفة رئيس التحرير الزميل حسن العلوي ومضى.

وكانت خسارتي أن الوردي لم يرد على تحيتي، ولكن ربحي كان كبيراً، إذ سألني وأجبته، وبعد ذلك كان الفنان المرحوم السيد خليل الورد يحدثني عنه كثيراً، وأراني مراسلاته معه عندما كان الوردي يدرس في أمريكا، وفي رسائل الوردي للورد اندهاش كبير بالمنجزات الحضارية الجديدة من المناديل الورقية مرورا بالسلالم المتحركة والأحزمة الناقلة والأخرى التي أصبحت كلها في متناولنا الآن.

وأخيراً التقيت الوردي عندما كنت بصحبة العلامة الدكتور حسين علي محفوظ في محل الصياغة الكبير الذي يمتلكه السيد صفاء الوردي في باب القبلة في الكاظمية، وتوثقت بيننا علاقة متينة، لا أدري كيف تكونت بهذه السرعة.

وإني إذ أهنؤه بعيد ميلاده الحادي والثمانين أدعو الله أن يبقيه ويبقيكم جميعاً ويبقيني لنهنؤه بالعيد المئوي لميلاده.

وأقدم شكري الجزيل لأريحية صديقنا النبيل محمد الخاقاني الذي جمعنا هذا اليوم لنحيي هذه الذكرى الرائعة العزيزة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حوارات مع الوردي

آخر حوار مع الوردي من فراش المرض

الوعظ لا يؤثر في سلوك الناس إلا قليلاً

البشر كلّهم من أصل واحد ومن طبيعة واحدة

العراق كان مركز الحضارة العالمية في العهد العباسي

حاوره: سلام الشماع

استجاب الدكتور علي الوردي لطلب (صوت الطلبة) بإجراء هذا الحوار معه حول الشرق ومفاهيمه الاجتماعية وتباين هذه المفاهيم بين أجزائه المختلفة على الرغم من أنّ الوردي يرقد الآن في فراش المرض بعد عملية جراحية أجريت له نرجو أن تكلل بالشفاء التام إن شاء الله.

والوردي يتحدث في هذا الموضوع لأول مرّة متطرقاً إلى المجتمع الياباني وميزاته والفروق الموجودة بينه وبين المجتمع العربي.

ما التراثية؟

سألناه: في المفاهيم الاجتماعية العلمية أين هو الشرق جغرافياً؟

أجاب الوردي: إنّ الشرق مفهوم جغرافي ليست له صلة مباشرة بعلم الاجتماع، إنّ الذي يهتم به علم الاجتماع في شأن المقارنة بين الشعوب هو ما يُطلق عليه في الإنكليزية مصطلح culture والذي أميل أنا إلى ترجمته في العربية بـ(التراثية)، ويقصد به مجموعة المعتقدات والأعراف والقيم والتقاليد التي يتميّز بها مجتمع عن آخر.

الخطابية والمثاليات

۞ وما هي أهمية التراثية في علم الاجتماع؟

إن أهمية التراثية في علم الاجتماع تأتي من كونها لها تأثير كبير في تكوين شخصية الإنسان وفي توجيه تفكيره وسلوكه فالإنسان ينشأ منذ طفولته في تراثية معينة، وهو يرى الناس حوله يتفاضلون

ويتفاخرون ويتنابزون حسب المعايير الموجودة في تلك التراثية وهو لذلك يطمح أن يكون في كبره موضع الفخار ونظرة التقدير في مجتمعه المحلي الذي نشأ فيه ونحن إذ نريد أن نفهم الناس في مجتمع معين يجب أن ننظر في المعايير والقيم السائدة عملياً في ذلك المجتمع والتي يتمايز بها الأفراد فيه ويتفاخرون ويتنابزون بها.

إننا إذ نريد أن نفهم الناس على حقيقتهم ليس من الصواب أن ننظر في الخطابيات والمثاليات التي يتواعظون بها في اجتماعاتهم العامة ففي بعض المجتمعات قد يظهر نظامان متناقضان من القيم أحدهما مثالي للتواعظ والآخر واقعي لتحديد السلوك عملياً، وهنا يجب أن نذكر أن النظام المثالي التواعظي لا تأثير له في سلوك الناس إلا قليلاً وأن أكبر التأثير هو لنظام القيم العملي الذي ينشأ عليه الفرد ويعتاد عليه في طفولته في البيت أو عندما يلعب مع الأقران وفي كبره عندما يشارك في الحياة العامة.

يمكن القول بوجه عام إن كلّ مجتمع في العالم له تراثية خاصة به تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى وقد تبين الآن علمياً أن أي مجتمع في العالم لم يصنع تراثيته بإرادته واختياره فالتراثية هي نتاج الظروف والأحداث التي مرّ بها المجتمع عبر تاريخه الطويل.

شاع في وقت من الأوقات في عهد ازدهار النازية أن الأقوام

يتمايزون بصفات وراثية على نحو ما يتمايز الأفراد وإن هذا التمايز له أثره في صنع التراثيات المختلفة في الأقوام ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا رأي ذهب زمانه فالبشر كلّهم من أصل واحد ومن طبيعة واحدة وهم إنما اختلفوا في تراثياتهم من جراء اختلاف الظروف والأحداث التي مرّوا بها في تاريخهم، كما أشرت إليه آنفاً، ولو أن أي قوم من الأقوام مرّوا في تاريخهم بالظروف والأحداث نفسها التي مرّ بها آخرون لصاروا مثلهم في تراثيتهم.

النجاح العظيم

۞ هل تتباين المفاهيم الاجتماعية بين اليابان في الشرق الأقصى وبغداد في غربي آسيا ومراكش في المغرب الأقصى؟

أطرق الوردي قليلاً قبل أن يجيب:

ـ لم أفهم القصد من هذا السؤال ويخيل لي أنك تسأل عن الفرق بين المجتمع الياباني والمجتمع العربي وما هي أسبابه..

وعلى أية حال فليس في مقدوري المقارنة بين هذين المجتمعين لاسيّما وأنا لا أعرف عن المجتمع الياباني وتراثيته إلا قليلاً..

الملاحظ أن بعض علماء الاجتماع مشغولون منذ وقت غير قصير بدراسة هذه الطفرة الصناعية التي اشتهرت بها اليابان في الآونة الأخيرة..

إن هذه الطفرة هي في نظر أكثر الناس أشبه باللّغز الذي يثير التساؤل أو العجب فما هي العوامل التي تكمن وراءه؟!..

ويبدو أن علماء الاجتماع يكادون يتّفقون على أن من أهم أسباب هذه الطفرة هي التراثية التي ينشأ عليها العامل الياباني.

المعروف عن العامل الياباني بوجه عام أنه دؤوب حريص على أداء عمله ومخلص فيه، والسؤال الذي يواجهنا هنا هو ما هي القيم الاجتماعية التي ينشأ عليها العامل الياباني وتجعله متميزاً بهذه الصفة أكثر مما يتميز بها أي عامل آخر في أقطار العالم؟! ..

نحن نعرف عن بعض التراثيات في العالم أنها تحث الفرد على أن يكون قوياً غلاباً بدلاً من أن يكون منتجاً مخلصاً في عمله، فالفرد ينشأ هناك وهو يرى الناس حوله يتفاخرون بالقوة والغلبة ويحتقرون العامل الدؤوب، إنه لا لوم عليه حين يطمح أن يكون ذا شخصية محترمة في محيطه المحلي، ولكن المشكلة هي في المجتمع الذي يتربى أفراده على هذا النمط من التفكير والسلوك إذ هو لا يستطيع أن يكون ناجحاً في هذا العصر القائم على الصناعة والتقنية. فلو أنه كان قد عاش في عصر آخر فربما كان مصيره النجاح العظيم..

وإنك إذ تسألني عن المجتمع العربي الممتد من بغداد شرقاً إلى مراكش غرباً ونوع التراثية التي تسود فيه بالمقارنة إلى تراثية اليابان

فليس لي إلا أن أقول إن هذا موضوع صعب معقد وهو بالإضافة إلى ذلك قد لا يرضى عنه بعض القراء أو هو قد يثير سخطهم.

منبع البداوة

※ ولكن ما هي وجهة نظر عالم الاجتماع العراقي علي الوردي في المجتمع العربي؟

- إنّ وجهة نظري في المجتمع العربي هي أنه يتميّز عن الكثير من المجتمعات الأخرى في العالم بأنه كان وما زال موضع الصراع بين البداوة والحضارة. يجب أن لا ننسى قبل كلّ شيء أن الوطن العربي كان مهد أول حضارة ظهرت على وجه الأرض قبل ستة آلاف سنة.. ثم صار مركزاً للحضارة العالمية في القرون الوسطى ولكننا يجب أن لا ننسى في الوقت نفسه أنّ الوطن العربي يضم أكبر امتداد صحراوي في العالم.. ومعنى ذلك أنه أكبر منبع للبداوة في العالم.

حين ندرس تاريخ أي قطر من الأقطار العربية نجد أنه تسيطر عليه القيم الحضرية تارة والقيم البدوية تارة أخرى، وهذا هو ما رأيناه واضحاً في تاريخ العراق.. فهو كان في العهد العباسي مركزاً للحضارة العالمية، ثم سيطرت عليه القيم البدوية عقب سقوط تلك الدولة، وظل كذلك طوال ستة قرون حتى جاءت الحضارة الحديثة أخيراً في القرن العشرين وحدث الصراع عند ذاك بين القيم الجديدة والقيم القديمة وهو الصراع الذي ما زال المجتمع العراقي يعاني منه حتى الآن..

أعود فأقول إن هذا موضوع صعب معقد وأعترف أني غير قادر أن أتوصّل فيه إلى نتيجة مجدية أو مقنعة..

وكلّ أملي أن يتوصّل الجيل الجديد من الباحثين الاجتماعيين إلى ما عجز الباحثون قبلهم عنه.

كانت في ذهننا أسئلة عديدة أخرى أردنا أن نطرحها على الوردي إلا أن وضعه الصحي لم يسمح لنا بذلك فتمنينا له الشفاء العاجل، على أمل أن نعود لطرح أسئلتنا الأخرى بعد عودة أجنحة العافية بالرفرفة فوق رأسه.. قولوا: إن شاء الله..

الوردي: أنا وحدي ولكن محاط بالناس

حوار مع عالم الاجتماع د. علي الوردي

في حديقة منزله الواسعة كان ينتظرنا، كان الجوّ مفتوحاً على صباح أيّاريّ متنسّم، يضيء المحيط والجوار. دخلنا بأوراقنا وأسئلتنا، فرحّب بنا بسعادة العالم، وامتنان المفكّر، إنّه د. علي الوردي، عالم الاجتماع العراقي المعروف. جلسنا عنده في صالة بيته، فارهةً كانت تطلّ على البيوت الأنيقة المجاورة لمنزله ذي النوافذ العالية ذات السعة والذي يقع في الأعظمية.

قال: لا أحد عندي، أنا وحدي، غير أنني محاطٌ بالناس، وأيامي غربة سوق قد تمنح استراحة لمتأمل. الحديث الذي دار بيننا امتدّ ساعات، كان الناس وطباعهم، وأصولهم، وهذه مادة علم الاجتماع بشكل عام، صلب الحوار، عن مستقبل هذا العلم الخطير، في العراق والوطن العربيّ والعالم. تكلّمنا عن علي الوردي أيضاً، وتجاربه وكتاباته في هذا الموضوع. وتحدّثنا كذلك عمّا إذا استطعنا أن ندرس خامة شعبنا وتاريخه الاجتماعي، ووضع الحلول العصرية للمشكلات والتقاطعات الاجتماعية للشخصية العربية

ومستقبلها الحضاري بين شعوب العالم المتحضّر، من خلال علم اجتماع عربيّ معاصر، وأمورٍ أخرى عدّة.

«آفاق عربية» تقدّم في ملفّها الخاص هذا الحوار المهم مع عالم الاجتماع العراقي د.علي الوردي.

آفاق: الذي نعرفه عنك أنك تدعو منذ زمن غير قصير إلى إنشاء علم اجتماع عربي، كنت تدعو إلى ذلك في جميع المؤتمرات العربية التي شاركت فيها، كمؤتمر القاهرة وبيروت وتونس وأم درمان وغيرها. وما نرجوه الآن هو أن توضح لنا فحوى هذه الدعوة ومسبباتها؟

الوردي: يؤسفني أن أقول إن بعض باحثينا الاجتماعيين أو الكثيرين منهم، هم مترجمون أكثر مما هم باحثون. فهم يدرسون مجتمعهم في ضوء النظريات التي درسوها في الخارج. وإنك حين تقرأ ما كتبوه في ذلك يخيل إليك كأنهم يعيشون في عالم آخر، وقد يصعب عليك في بعض الأحيان أن تفهم ما يكتبون.

إننا لا يجوز أن نبخس قيمة النظريات العلمية التي درسوها في الخارج، ومن الممكن القول إنها ضرورية لمن يريد دراسة علم الاجتماع الحديث، ولكن الذي أريد أن الفت النظر إليه هو أننا لا يجوز أن نلتزم بتلك النظريات التزاماً حرفياً عند دراسة مجتمعنا.

من الجدير بالذكر في هذا الصدد أن علم الاجتماع الحديث لم يصبح بعد علماً عالمياً تنطبق مفاهيمه ونظرياته على جميع المجتمعات في العالم. إنه الآن في بداية نموه ولا تزال تظهر فيه المدارس المتنوعة وكلّ مدرسة منها ذات طابع خاص بها إذ هي تستمد جذورها من التراث الاجتماعي الذي نشأت فيه.

الملاحظ أن علم الاجتماع الغربي الذي بدأ به (كونت) في منتصف القرن التاسع عشر، ثم أخذ ينمو بعدئذ على أيدي علماء غربيين، قد بحث في أمور قلّما نجد لها أثراً في مجتمعنا العربي.. فهؤلاء العلماء كانت أذهانهم مشغولة بالقضايا التي كان مجتمعهم يتساءل عنها أو يعاني منها. ولهذا كانت دراساتهم الاجتماعية مطبوعة بطابع تلك القضايا قليلاً أو كثيراً.

إني في كلمتي التي ألقيتها في مؤتمر القاهرة في كانون الثاني من عام ١٩٩٢، وفي كلماتي الأخرى التي ألقيتها في المؤتمرات العربية الأخرى، كنت أؤكد على نقطة ما زلت أؤكد عليها، وهي أن لمجتمعنا العربي طابعه الخاص به كما هو الحال في أي مجتمع آخر من مجتمعات هذا العالم، ونحن لذلك لا نستطيع فهمه أو دراسته إلا بعد استكناه طابعه الخاص به .

آفاق: اسمح لي أن أسألك عن هذا الطابع الخاص الذي يتميز به المجتمع العربي عن غيره من مجتمعات العالم كما تقول؟

الوردي: قبل أن أجيبك على هذا السؤال أحب أن أذكر أن هناك فرقاً كبيراً بين منهج الدراسة العلمية وطريقة الفخار والحماس التي يتبعها بعض كتابنا وشعرائنا عند وصف مجتمعهم أو أمتهم.

إني لا أنكر أهمية طريقة الفخار والحماس إذ هي تقوي الروح المعنوية في الناس وتدفعهم نحو التضحية والكفاح، ولكننا يجب ألا ننسى في الوقت نفسه أن لهذه الطريقة حداً ينبغي أن تقف عنده، فهي إذا زادت عن حدها قد تؤدي في بعض الأحيان إلى الغرور وإلى إهمال المشاكل والعيوب التي نعاني منها. أنقل في هذه المناسبة نص عبارة كنت قد ذكرتها في كتاب لي صدر في عام ١٩٦٩، وهي كما يلي:

(إننا في هذه المرحلة المتأزمة من تاريخنا في أشد الحاجة إلى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا، فليس من الخير أن يسيطر الحماس على تفكيرنا دوماً، كما أن ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس)..

إننا حين ندرس مجتمعنا يجب أن نعلم أنه كغيره من المجتمعات البشرية نتاج الظروف والأحداث التي مرّ بها في تاريخه. وقد اتضح الآن علمياً أن الأقوام البشرية كلّها من طبيعة واحدة، إنما هي تختلف فيما بينها تبعاً لاختلاف الظروف والأحداث التي مرّت بها في تاريخها القريب أو البعيد.

هناك فرق بين الفرد والمجتمع في هذا الشأن، فالأفراد يختلفون فيما بينهم من ناحيتين، إحداهما العوامل الوراثية التي تدخل في تكوين شخصية كلّ فرد منهم، والأخرى طبيعة الظروف والأحداث التي يمرّ بها الفرد في نشأته الاجتماعية.

ومعنى هذا أن شخصية كلّ فرد من البشر إنما هي نتاج التفاعل بين عوامل الوراثة وعوامل المحيط فيها. وهي بذلك تختلف عن الطابع الخاص الذي يتميز به كلّ مجتمع عن الآخر.

كان النازيّون يعتقدون أن الأقوام يختلفون في صفاتهم الوراثية على نحو ما يختلف الأفراد، ولهذا رأيناهم يصنفون الأقوام على درجات عالية وواطئة من حيث قدراتها الاجتماعية. وقد تبين الآن الخطأ في هذا الرأي، ولم يبق من العلماء من يأخذ به في الوقت الحاضر.

وأعود بعد هذا إلى سؤالك عن الطابع الذي يتميز به المجتمع العربي وما هي العوامل التي أدت إليه.

لو ألقينا نظرة عامة على خارطة الكرة الأرضية لوجدنا المنطقة العربية، وهي المنطقة التي تمتد من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، إنها تتميز عن غيرها من مناطق العالم بكونها أكبر امتداد صحراوي على وجه الكرة الأرضية. ومعنى هذا أنها أكبر منبع للبداوة في العالم، ولكننا يجب ألا ننسى في الوقت نفسه أن

هذه المنطقة كانت مهد أقدم الحضارات في التاريخ البشري وقد ظلت الحضارة تزدهر فيها حيناً بعد حين وكانت بعض الفترات مركزاً للحضارة في العالم كلّه.

آفاق: هناك من يقول إن البداوة في المنطقة العربية ذهب زمانها، وهي في تقلّص مستمرّ، وسوف يأتي يوم لا يبقى منها أثر في هذه المنطقة، فلماذا نشغل أنفسنا بدراستها؟!

الوردي: إن ما تقوله صحيح، فالبداوة تتقلّص باستمرار على توالي الأعوام في المنطقة العربية، خذ العراق مثلاً فقد كانت القبائل البدوية في منتصف القرن الماضي تشكّل نحو ٣٥ ٪ من سكانه، بينما هي الآن تشكّل نحو ٢ ٪ أو أقلّ من ذلك. وسوف يأتي يوم لا يبقى من تلك القبائل أي أثر في العراق. هذا ولكن المشكلة ليست في البداوة من حيث وجودها الظاهري بل هي من حيث وجودها في أعماق نفوسنا.

قلت في مناسبات سابقة، وأعيد القول في هذه المناسبة، إن الكثيرين منا هم متحضّرون في ظاهرهم بينما هم في باطنهم ما يزالون بدواً أو شبه بدو، فهم قد تحضّروا في مساكنهم وملابسهم ومهنهم وبعض مظاهر حياتهم الأخرى ولكنهم في القيم الاجتماعية التي تسيطر على تفكيرهم وسلوكهم الواقعي لا يختلفون كثيراً عن البدو.

قرأت في مجلة (الرافدين) في عددها الصادر في ٢٥ نيسان الماضي مقالة حول الوضع في عربات القطار في العراق جاء فيها ما نصه: (... وترى الستائر متسخة ببقع من الدهون والأصباغ والأوحال بسبب استخدامها في مسح الأحذية من قبل الذين انعدمت فيهم روح المواطنة والمسؤولية والذوق العام. ومن المؤذي أيضاً أن عمل هؤلاء لا يقف عند هذا الحد بل يتعدى ذلك إلى التعمد في تخريب محتويات وأثاث أجهزة الكهرباء في العربات الأنيقة وتهشيم الزجاج للشبابيك الداخلية وتمزيق أغطية الكراسي أو الكتابة عليها أو على الجدران للعربات وسرقة مرآة وحنفيات المرافق الصحية وضاغطات التبريد لمياه الشرب والشراشف والوسائد والستائر)..

يعزو كاتب المقالة هذه الأعمال إلى أفراد من المجتمع هم الذين يصفهم بأنهم انعدمت فيهم روح المواطنة والمسؤولية والذوق العام. والواقع أننا حين ندرس هذه الأعمال من الناحية الاجتماعية لا يجوز أن نحصرها في أولئك الأفراد الذين ذكرهم، بل هي تشمل أكثر الناس الذين يحيطون بهم، فالفرد عادة لا يقوم بعمل يرى استهجاناً له من المحيطين به، فمن طبيعة الناس أنهم يبدون اشمئزازاً أو لوماً حين يرون أحداً منهم يقوم بعمل مخالف لمألوفاتهم وتقاليدهم التي اعتادوا عليها، وهذا يجعل الفرد ميالاً إلى تجنب كلّ ما يخالف تلك المألوفات والتقاليد بمقدار جهده.

يمكن القول إن تخريب المرافق العامة ظاهرة واسعة الانتشار في مجتمعنا، ولعلي لا أغالي إذا قلت إن من النادر أن نجد لها مثيلاً في أي مجتمع آخر، ومما يلفت النظر أننا في الوقت الذي نجد فيه هذا التخريب العام في مجتمعنا نجد فيه كذلك من مظاهر البذل والضيافة والتنافس على الكرم ما لا نجده في مجتمع آخر..

اعتاد الكثيرون منا على الإسراف الكثير في بذل الطعام والضيافة وإقامة الولائم في المناسبات الدينية أو في مناسبات المآتم والأفراح وغيرها. وهم يدعون إليها أشخاصاً ليسوا في حاجة إلى الطعام ولا تقتصر عادات البذل والكرم على الولائم وحدها.. بل تشمل كثيراً من مظاهر الحياة الأخرى.

اذهب إلى أبواب المقاهي أو المطاعم أو السينمات أو الملاهي، فإنك ستجد الناس فيها يتدافعون ويتنافسون من أجل دفع ثمن البطاقة أو ثمن المأكل والمشرب. فكلّ واحد منهم يريد أن يكون هو الدافع لا غيره، وهم قد يحملون هذه العادة معهم عند سفرهم إلى الخارج فيثيرون في الناس هناك الاستغراب أو التقزز.

وهم لا يكتفون بالتدافع عند البذل والكرم فقط، بل هم يتدافعون أيضاً عند التقديم في الدخول أو الخروج، أو عند تقديم أحدهم شيئاً إلى صاحبه، فكلّ واحد منهم يصر على الآخر ويقسم عليه، وقد تطول المدافعة بينهم مدة غير قصيرة، فهذا يقول: (أرجوك بالله عليك!)، والآخر يجيبه قائلاً: (والله ما يصير!)..

إن هذا قليل من كثير من القيم والعادات التي ورثناها من البداوة، فهي تكاد لا تحصى، ومن الممكن ملاحظتها في كلّ مكان في هذا المجتمع، وقد أصبح من الواجب علينا في هذه المرحلة التي نمرّ بها أن تدرس تلك القيم والعادات من أجل معالجتها أو محاولة التخفيف من آثارها التي تعرقل علينا مسيرتنا الحضارية..

آفاق: قرأت لك بحثاً نشرته مجلة (الباحث العربي) التي يصدرها مركز الدراسات العربية في لندن، في عددها الصادر في تموز ١٩٨٦، وهو بعنوان (أوجه التشابه والاختلاف بين الأقطار العربية من الناحية الاجتماعية)، وقد ذكرت في هذا البحث أن الأقطار العربية كلّها تعاني من الصراع بين البداوة والحضارة ولكنها غير متشابهة من حيث طبيعة هذا الصراع وتطوّره عبر التاريخ، فهلا أوضحت لنا ذلك بقدر ما يسمح به المجال؟

الوردي: من الجدير بالذكر أن الأقطار العربية تختلف فيما بينها من بعض النواحي أهمها ناحيتان هما:

١ ـ الأحداث التاريخية التي حدثت في القطر، وهل مرّت به فترة انحطاط حضاري، وهل كانت تلك الفترة طويلة أو قصيرة، ومتى اتصل القطر بالحضارة الحديثة.

٢ ـ مبلغ انفتاح القطر تجاه الصحراء المتاخمة له، وكثرة ما في تلك الصحراء من قبائل بدوية متحفزة للتسلل إليه أو غزوه.

إن هاتين الناحيتين لهما أثرهما الكبير في جعل كلّ قطر عربي يتميز عن الآخر من حيث الصراع أو التفاعل بين الحضارة والبداوة ومبلغ تأثير القيم البدوية فيه.

خذ العراق على سبيل المثال، فهو يمكن اعتباره نموذجاً للدراسة في هذا الشأن، وهي الدراسة التي شغلت بها نحو نصف قرن وتوصّلت فيها إلى نتائج لم تلق قبولاً من الكثيرين في العراق مع الأسف الشديد.

ليس هنا مجال للإسهاب في ذكر هذه النتائج، وقد يكفي أن اذكر خلاصة لها لتوضيح ما أريد أن أقوله في هذا الصدد.

يتصف القطر العراقي بخصيصتين كان لهما أثرهما الواضح في تكوينه الاجتماعي. فهو أولاً مرّت به فترة انحطاط حضاري طويلة دامت نحو ستة قرون وذلك عقب سقوطه بأيدي المغول في القرن السابع الهجري.

وهو بالإضافة إلى ذلك يقع على حافة صحراء مليئة بالقبائل البدوية وليس بينه وبينها حاجز طبيعي يمنعها من التسلل إليه أو غزوه، وقد انتهزت تلك القبائل فترة الانحطاط الحضاري فتغلغلت في المجتمع العراقي وسيطرت عليه بقيمها وعاداتها.

إن لكلّ من الحضارة والبداوة محوراً رئيسياً تدور حوله، فمحور البداوة هو العصبية القبلية بينما محور الحضارة هو السلطة

الحكومية. ويجب أن لا ننسى أن العراق حين سيطرت عليه فترة الانحطاط الحضاري، وهي التي نسميها (الفترة المظلمة) كانت السلطة الحكومية فيه في غاية الضعف والتفسخ، فلم يكن هم الحكومة حينذاك سوى جباية الضرائب، وتركت الناس يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون، وبذا استفحلت العصبية القبلية بين الناس، كما استفحلت القيم المرادفة لها كالثأر والدخالة والنخوة والتسيار والغزو والنهب وغسل العار والنهوة وما أشبه.

كان من عادة الناس في تلك الأيام أنه إذا اعتدي على أحد منهم، أو اغتصب حقه، فهو لا يلجأ إلى الحكومة ليقدم شكواه إليها، إذ هو يعلم أن شكواه إليها لا تنفعه شيئاً، بل هو يلجأ إلى الجماعة التي ينتمي إليها، كالأقرباء أو الجيران أو العشيرة، فهو ينخوهم ويستنجد بهم، وهم يهبون لنجدته دون أن يسألوه عن السبب، وكثيراً ما تنشب المعارك بين الناس من جراء ذلك ويسقط القتلى والجرحى.

حدثتنا جريدة (الجمهورية) في عددها الصادر في ١٩ نيسان الماضي عن معركة عشائرية فظيعة حدثت في عام ١٩١٧، وقد رواها الشيخ ضاري فياض العلي رئيس عشيرة البو عامر، وخلاصتها أن بقرة تعود لرجل من البو عامر دخلت في مزرعة تعود لرجل من عشيرة أخرى، فأسرع صاحب المزرعة إلى قتل البقرة، ولما سمع

صاحب البقرة بقتل بقرته أسرع إلى القاتل فقتله، ونشبت من جراء ذلك معركة بين العشيرتين سقط فيها مئة قتيل وثمانون جريحاً.

إن هذه المعركة لم تكن نادرة الحدوث في العراق حينذاك، وهي لا ينحصر حدوثها في الريف والبادية، بل هي تشمل المدن أحياناً، وكثيراً ما تنشب المعارك بين المحلات في المدينة الواحدة، أو بين المدن، لسبب لا يختلف في فحواه عن قتل بقرة أو ما أشبه.

إني أدركت بقايا ذلك العهد في صباي وبداية شبابي، فالعادات الاجتماعية لا تزول بزوال الظروف التي نشأت فيها، وقد كنت أرى الناس يسلكون ويفكرون على نحو ما كانوا يفعلون في العهد العثماني، ومما أتذكره في هذا الصدد حادثتان حدثتا في محلة الانباريين المجاورة لمحلتنا في الثلاثينيات، ففي الحادثة الأولى ذهب أحد أفراد المحلة، وكان بزازاً له دكان في السوق، إلى عشيرة ريفية قريبة ليطالب رجلاً منها بدين له عليه، فحصل تشاتم بين الرجلين مما أدى بالرجل الريفي إلى قتل الرجل الانباري، وفي اليوم التالي كان أحد أقرباء القاتل جالساً في مقهى في الكاظمية وهو لا يعلم من الأمر شيئاً، فأسرع إليه أحد أقرباء المقتول في المقهى وقتله حالاً.

أما الحادثة الثانية فقد حدث أن شاعت بعض الشائعات غير الحسنة عن سلوك امرأة من أهل المحلة، ولم يكن لها من الأقرباء سوى أخ صغير وهو غير قادر على القيام بغسل عارها، وقد وجد

وجهاء المحلة أن سلوك تلك المرأة يمس شرفهم ويلحق العار بهم، فاجتمعوا في دار أحدهم وقرروا تحريض أخيها على قتلها وتدريبه على ذلك، وقد تم لهم ما أرادوا، ونال الأخ من رعايتهم الشيء الكثير عند إلقاء القبض عليه وعند إطلاق سراحه بعدئذ، وقد رأيته ذات يوم وهو يمشي مزهواً بنفسه ويحظى بتقدير الناس واحترامهم.

أستطيع أن أقول إن هذه القيم والعادات التي رأيناها في العراق يمكن أن نرى أمثالها في الأقطار العربية الأخرى، ولكن الذي يجب أن نذكره أنها لا يمكن أن تكون على وتيرة واحدة، أو على درجة واحدة من الانتشار والقوة، فيها جميعاً، فكلّ قطر يختلف عن الآخر في ذلك تبعاً لطبيعة فترة الانحطاط الحضاري التي مرت به من جهة، ولطبيعة الصحراء المتاخمة له من الجهة الأخرى، وهذا موضوع طويل حاولت شرحه في البحث الذي نشرته مجلة (الباحث العربي) في تموز ١٩٨٦، ولعلي أحاول شرحه بتفصيل أكثر في فرصة قادمة.

آفاق: صدر لك كتاب في مصر في عام ١٩٦٢ وأعيد طبعه في تونس، وهو بعنوان (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته).. والملاحظ في هذا الكتاب أنك تدعو إلى إنشاء علم اجتماع عربي يستمد جذوره من ابن خلدون وليس من الاجتماع الغربي، وأريد أن أسألك الآن بعد مرور ثلاثين سنة على صدور ذلك الكتاب: هل لا تزال على رأيك هذا أم غيرت فيه قليلاً أو كثيراً؟

الوردي: أنتهز هذه الفرصة لكي أبدي رأيي في ابن خلدون فيما له وما عليه، فإني أعتبر نفسي من تلاميذ هذا الرجل، وكان هو موضوع أطروحتي التي نلت بها شهادة الدكتوراه من جامعة تكساس في عام ١٩٥٠ ، ومن الممكن القول إن ابن خلدون هو أول مفكر في تاريخ الفكر البشري حاول دراسة الظواهر الاجتماعية كما هي في الواقع وليس كما يجب أن تكون. فقد كان المفكرون قبله، وظلوا بعده زهاء خمسة قرون، يشغلون أنفسهم بما يجب أن يكون عليه المجتمع، ولهذا كانوا يحلقون عالياً في عالم المثاليات والخطابيات والوعظيات دون أن ينزلوا إلى الواقع ليدرسوه كما هو من غير مدح أو ذم.

إن الحضارة العربية يجب أن تفتخر برجل مبدع من طراز ابن خلدون، فإن الإبداع الفكري الذي جاء به ابن خلدون لم يأت من فراغ، بل هو استمد جذوره من مفكرين ظهروا قبله في تلك الحضارة، على نحو ما شرحته بتفصيل في الكتاب الذي صدر في مصر في عام ١٩٦٢ ، ومن المؤسف أن ابن خلدون عاش في وقت كانت الحضارة العربية تسير في طريق الذبول، فلم يظهر بعده من يهتم به وبالمنهج الجديد الذي دعا إليه، ولذا أحيط عمله الإبداعي بالإهمال والنسيان، وظل كذلك طوال خمسة قرون إلى أن ظهر في الغرب من اكتشفه ولفت الأنظار إليه..

إن الثورة الفكرية التي جاء بها ابن خلدون يجب أن نضعها أمام أبصارنا في هذه المرحلة التي نعيش فيها، فإن كثيراً من مفكرينا وكتابنا لا يزالون يفكرون ويكتبون على الطريقة نفسها التي انتقدها ابن خلدون وثار عليها، فهم مشغولون بما يجب أن يكون عليه المجتمع وليس بما هو عليه في الواقع.. فهم في وادٍ ومجتمعهم في وادٍ آخر.

إن الوعظيات والخطابيات كثيراً ما أضرّت بنا من حيث لا نشعر، فالناس اعتادوا أن يتواعظوا في أقوالهم بينما هم في أفعالهم يسيرون على القيم المحلية التي نشأوا عليها، والتي هي مناقضة للقيم المثالية التي يتواعظون بها، وهذا يؤدي بهم إلى ما نسميه (ازدواج الشخصية).

إن عظمة ابن خلدون لا تنحصر في منهجه الاجتماعي الواقعي فقط بل هي تظهر أيضاً في ناحية أخرى هي اهتمامه بدراسة البداوة والحضارة وكيف يحدث الصراع والتفاعل بينهما، فمن يقرأ كتابه (المقدمة) يجد كثيراً من فصولها قد خصصت لهذا الموضوع، وهو الموضوع الذي له أهميته القصوى في مجتمعنا والذي لا نجد من مفكرينا أو باحثينا من اهتم به إلا قليلاً.

إننا لا نلوم الاجتماعيين الغربيين على عدم تطرقهم لهذا الموضوع لأنهم لا يجدون له أثراً في مجتمعهم، كما أشرت إليه

سابقاً، ولكن اللوم يقع على الاجتماعيين العرب لإهمالهم الموضوع مع علمهم بأهميته القصوى في مجتمعهم. وهذا هو الذي جعلني أدعو إلى إنشاء علم اجتماع خاص بنا يقوم على الأساس الذي يضعه ابن خلدون.

وهنا أود أن أتوقف قليلاً لأقول بأني حين أبدي تقديري الكبير لابن خلدون والمنهج الذي جاء به لا أعني أنه كان كاملاً في كلّ ما جاء به من آراء ونظريات، فالواقع أنه كغيره من المفكرين العظام لابدّ أن يعتوره النقص والخطأ في بعض جوانب تفكيره، وإني عندما أقرأ مقدمته أجد فيها كثيراً من الأفكار التي لا تليق به. وكذلك حين أدرس سيرة حياته أجد فيها من الهنات والنقائص ما يشين مفكّراً كبيراً مثله. وقد أوضحت ذلك في كتابي الذي صدر في مصر في عام ١٩٦٢ بعنوان (ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته).

آفاق: إن من يقرأ مقدمة ابن خلدون يجد فيها ذماً صريحاً للعرب إذ هو وصفهم بأنهم يخربون البلاد التي يستولون عليها وأنهم بعيدون عن سياسة الملك وعن العلم والصناعة. فما قولك في هذا؟

الوردي: إن الأستاذ ساطع الحصري قد أجاب على هذا السؤال وكان جوابه مقنعاً. فابن خلدون حسب رأي الحصري عندما وصف العرب بتلك الصفات إنما كان يقصد بهم البدو ولم يقصد بهم أمة العرب بوجه عام، فالعرب كما لا يخفى فيهم البدو وفيهم الحضر. وكانت لهم حضارات عظيمة كما هو معروف.

ويجب أن لا ننسى في هذا الشأن أن ابن خلدون حين وصف البدو بتلك الصفات السيئة من جهة ووصفهم من الجهة الأخرى بصفات حسنة وفضلهم بها على الحضر. فقد عقد في مقدمته فصلاً بعنوان: «إن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر»، ذكر فيه: كيف «أن الحضر لكثرة ما يعانونه من قانون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه». وحين قارن ابن خلدون ذلك بأخلاق البدو قال عنهم إنهم «أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها».

إن البدو في نظر ابن خلدون أفضل أخلاقاً من الحضر، ولكن الحضر أفضل من البدو من حيث الصناعة والعلم والعمران، فكلّ واحد من هذين الفريقين له جوانب حسنة وجوانب سيئة، ولا يجوز التفاضل بينهم على أساس مطلق على نحو ما اعتاد المفكرون عليه قديماً.

ولابدّ لي في الختام من أن أشير إلى رجلين كان لهما رأي سيء في ابن خلدون بسبب ما نسب إليه من ذم العرب، أولهما الدكتور طه حسين والثاني الدكتور سامي شوكت.

كانت أطروحة طه حسين التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون تدور حول ابن خلدون وكان عنوانها «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية». وكان رأي طه حسين أن ابن خلدون إنما ذم العرب لأنه من أصل بربري. ولا حاجة بناإلى القول أن هذا رأي خاطئ من أساسه. فابن خلدون ذو نسب عربي عريق وهو من أسرة عربية معروفة تنتمي إلى رجل من الصحابة اسمه وائل بن حجر، وكان وائل هذا من أهل حضرموت وقد وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأكرمه النبي صلى الله عليه وسلم ثم أرسله إلى حضرموت بصحبة معاوية بن أبي سفيان لكي يتوليا معاً نشر الإسلام هنالك.

أما الدكتور سامي شوكت فكان يحمل الحقد الشديد على ابن خلدون بدافع من تعصبه القومي، وقد ألقى ذات يوم في الثلاثينيات خطبة في حفل كبير في بغداد أنحى فيها باللائمة على ابن خلدون وقال بوجوب حرق كتبه ونبش قبره باسم القومية العربية.

إن خير رد على هذا الرأي هو الذي جاء به الأستاذ ساطع الحصري في كتابه «دراسات عن مقدمة ابن خلدون». فالقومية لا يجوز أن تقوم على أساس الفخار والحماس وحده، بل هي يجب أن تقوم كذلك على الموضوعية والنظر الواقعي.

بماذا يختلف الوردي عن الشحاذ والمجرم؟

حوار مع الوردي عن المجالس

※ المعروف عنك أنك تحرص على ارتياد المجالس البغدادية فما هو السبب الذي يدعوك إلى ذلك؟ وما الفائدة التي تجنيها منها؟

. من الأمثال التي يتداولها الناس عندنا قولهم: «المجالس مدارس». وهو قول لا يخلو من صحة لأن اجتماع عدد من الأشخاص في مجلس معين يؤدي عادة إلى المناقشة في بعض المواضيع العامة إذ يبدي كل واحد منهم رأيه في الموضوع بمقدار جهده، وكثيراً ما تنتهي المناقشة إلى الكشف عن مختلف وجهات النظر في الموضوع، وفي ذلك فائدة لا تخفى. وهناك ناحية أخرى في المجالس لها فائدتها أيضاً ولاسيما لمن هو مثلي مختص في علم الاجتماع ودراسة الشخصية البشرية. إن المجالس يمكن اعتبارها مختبرات لدراسة شخصيات الذين يحضرون فيها. إن الذين يحضرون المجالس هم عادة متقاربون من حيث مستواهم الثقافي والاجتماعي غير أنهم مختلفون كل الاختلاف من حيث سلوكهم في المجلس وكيف يتكلمون أو يتجادلون. فمنهم من هو شديد التعصب لما نشأ عليه من معتقدات

وتقاليد، ومنهم من يملك شيئاً من المرونة أو التحرر تجاهها قليلاً أو كثيراً. ومنهم من يكثر الاعتراض على أقوال الآخرين أو مقاطعتهم وتخطئتهم، ومنهم من يجري في مجادلاته حسبما تقضي به آداب المجلس، ومنهم من يكثر من الكلام أو يتكلم فيما لا معرفة له به، ومنهم على النقيض من ذلك يميل إلى قلة الكلام والإصغاء إلى أقوال الآخرين، ومنهم من يغضب عندما يختلف أحد معه في الرأي، ومنهم من هو حليم متسامح... إلخ. الواقع أني استفيد فائدة كبيرة عندما أحضر المجالس، لأني أستطيع أن أعرف بها ملامح شخصية كل من يحضر فيها. فالمجالس في رأيي أفضل مجال يمكن أن أكتشف خفايا الحاضرين فيها.

۞ اسمح لي أن أسألك سؤالاً علمياً عاماً عن تكوين الشخصية في الإنسان، ولماذا تختلف الشخصية في كل فرد من البشر عن الآخر، وهل هذا الاختلاف موجود في مجتمعنا وحده، أم هو موجود في جميع المجتمعات البشرية؟.

- إن اختلاف الشخصية ظاهرة عامة في جميع البشر. فكل فرد من البشر له شخصية تختلف عن شخصية الآخر قليلاً أو كثيراً، ولا يمكن أن يوجد اثنان من البشر متماثلان في تكوين شخصيتيهما تماثلاً تاماً من جميع النواحي.

إن شخصية أي فرد من البشر هي نتاج التفاعل بين مجموعتين من العوامل وهما عوامل الوراثة وعوامل المحيط الاجتماعي. فالفرد يولد بصفات معينة ورثها من أبويه كلون البشرة وطول القامة وملامح الوجه وقوة البدن ودرجة الذكاء وغيرها، وهذه الصفات تتفاعل مع المحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد، في البيت وفي المحلة وفي المدرسة وفي المهنة وغيرها. وبذا تتكون شخصيته على نمط معين بمرور الزمن. معنى هذا إن الإنسان لا يد له أو اختيار في صنع شخصيته إلا في حدود معينة. فشخصية الإنسان هي في الغالب صنيعة عوامل لا يد له فيها. وهذا ينطبق على العظماء والعباقرة كمثل ما ينطبق على المساكين أو المجرمين. فكل واحد منهم غير مسؤول في الغالب عما وصل إليه من مكانة عالية أو واطئة. وما أكثر الأشخاص الذين سقطوا في حياتهم من جراء عوامل لا يد لهم فيها، ووراثية أو محيطية، فنالوا بذلك احتقار الناس أو عقابهم. وهذا هو أحد مظاهر ما نسميه بالظلم الاجتماعي.

۞ أرجو أن لا تغضب مني إذا طبقت هذا الرأي الذي جئت به عليك أنت. فأنت الآن بشخصيتك التي نعرفها لست إلا حصيلة عوامل وظروف لا يد لك فيها ولا اختيار. ومعنى هذا أنك لا تختلف في ذلك عن الشحاذ الذي يستجدي الناس في الطرقات، أو المجرم الذي يعتدي على الناس، فما قولك في هذا؟

- لا داعي للغضب مما تقول. فأنا بشر كغيري من البشر صنيعة الظروف والعوامل التي ساهمت في تكوين شخصيتي، ولا إرادة لي فيها إلا ضمن حدود معينة. فلو أني كنت قد نشأت في مثل الظروف التي نشأ فيها الشحاذ لكنت شحاذا مثله في أرجح الظن. أحمد الله كل الحمد لأني نشأت في عائلة متوسطة الحال وفي ظروف كانت فيها مدارس حديثة حيث استطعت أن أدخل في تلك المدارس وأنج فيها. إني من مواليد العام ١٩١٣، ولو أني كنت ولدت قبل ذلك بعشر سنوات، أي نشأت في العهد العثماني حين كانت المدارس الحديثة قليلة ومحتكرة لفئة معينة من الناس، لكنت الآن أكسب رزقي في دكان كغيري من أبناء طبقتي، وربما كنت فاشلاً في إدارة دكاني وأشكو من نكد الزمان.

أعرف شخصاً هو من أقراني في السن، وكان جاراً لي، وقد قُتِلَ أبوه في الحرب العالمية الأولى عندما كان مجنداً في الجيش العثماني. واضطرت أمه أن تشغله في طفولته في أعمال البناء الشاقة، وكنت أراها في بعض الأحيان تضربه ضرباً مبرحاً عندما يمتنع هو من الذهاب على العمل في الصباح الباكر. قضت الظروف على هذا الشخص أن يظل كادحاً طيلة حياته. فهو كان ذكياً بدرجة غير قليلة، ولكن الظروف لم تسمح له بالدخول في المدرسة كما دخلتها أنا. والسؤال الذي يواجهنا هنا: ما هو ذنب هذا الشخص وأمثاله

في الوضع السيئ الذي وصلوا إليه؟! وهل هم مسؤولون عنه؟! أعرف شخصاً آخر هو على النقيض من هذا المسكين الذي ذكرته. فهو قد نشأ في أسرة غير فقيرة وأتيح له أن يدخل في المدرسة ويتدرج فيها حتى نال شهادة عالية. أضف إلى ذلك أنه كان وسيماً رشيقاً وقد ساعده ذلك على تولي منصب حكومي مرموق. وبذا صار مزهواً بنفسه يتباهى بنفسه ويمشي مشية الخيلاء. إن هذا الشخص ينسى نعم الله عليه من حيث صفاته الجيدة التي ورثها من أبويه والتي لا يد له فيها، ومن حيث الظروف الحسنة التي أتاحت له استثمار تلك المواهب فيه. قال لي ذات يوم متباهياً بنفسه: «انظرني كيف صنعت نفسي». ولم أستطع أن أصارحه بالحقيقة عن نفسه، وسكت تجاهه، فظن أني موافق له فيما قال. الواقع أن أمثال هذا الشخص المتباهي كثيرون. وقد اعتاد بعض الناس على اعتبارهم نماذج يفتخر بهم، وهم يطلبون من أطفالهم أن يحتذوا بهم ويصيروا مثلهم. فالأم توبّخ ولدها قائلة له: «لماذا لم تكن مثل فلان؟! ماذا ينقصك؟! خائب يا حظي!!». وكثيراً ما يؤدي هذا التوبيخ للأولاد إلى تكوين عقدة نفسية فيهم.

❊ المعروف عنك أنك تكره المدح والتكريم. فقد حاول بعض أصحاب المجالس البغدادية تخصيص بعض الجلسات لتكريمك على نحو ما فعلوا مع غيرك ولكنك رفضت. فما هو السبب في هذا الرفض؟

- هناك سببان أحدهما مستمد من الرأي الذي ذكرته آنفاً عن تكوين شخصية الإنسان. فإني حين أستعرض تاريخ حياتي خلال هذه الثمانين سنة التي عشتها اشعر كأني كنت في أكثر الأحيان كالريشة في مهب الرياح تلعب بي الأحداث والمصادفات، وتميل بي نحو النفع تارة ونحو الضرر تارةً أخرى، من دون أن تكون لي إرادة فيها أو اختيار. ذكرت آنفاً وأعيد القول الآن، إني لو كنت قد ولدت قبل عشرة سنوات من ميلادي الواقعي لكنت الآن أكسب رزقي في دكان، وربما كنت فاشلاً فيه. ولا تنس أني كنت في أواخر العشرينيات من عمري وأوائل الثلاثينيات عطاراً في أحد أزقة الكاظمية وكنت فاشلاً في حرفتي إلى أبعد الحدود. وما زال الدكان الذي كنت أعمل فيه موجوداً أمرُّ عليه بين كل حين وآخر لكي أتفرج على تلك المرحلة من تاريخ حياتي.

وقد تسألني كيف صرت عطاراً في تلك المرحلة وكيف انتقلت إلى المدرسة بعدئذ؟ وجوابي إن الأمر لم يكن بإرادتي واختياري، بل هي من المصادفات والظروف التي كان لها دورها الفعال في ذلك. أعني بذلك أني في وضعي الذي أنا فيه الآن كغيري من البشر نتاج ظروف وعوامل لا يد لي فيها، وليس لي فضل فيه إلا في نطاق محدود جداً. وبعبارة أخرى: إني لا أستحق التّكريم على أمر ليس هو من صنع يدي. أما السبب الثاني في رفضي للتكريم فمصدره المزاج الذي

هو جزء من شخصيتي. فالقضية هي قضية مزاج على الأكثر. فهناك أشخاص لديهم مزاج يجعلهم يحبون المديح والتكريم بينما هناك أشخاص آخرون لديهم مزاج آخر. ألقى الأستاذ مسعود محمد كلمة له في منتدى بغداد قال فيها إنه لا يحب المديح. وقد شعرت عند سماعي لكلمته أنه يشبهني في ذلك. والواقع أن هناك أشخاصاً كثيرين هم مثلنا لا يحبون المديح. وهم لذلك قد يعانون بعض المشاكل في حياتهم لأن الناس يفترضون فيهم أنهم كغيرهم يحبون المديح وهم يعاملونهم على هذا الأساس بينما هم في الواقع ليسوا كذلك.

أرسل إلي الزميل الباحث الصحفي مهدي حمودي الأنصاري قصاصات ورق تحوي موضوعاً كتبه العلامة الكبير الراحل الدكتور علي الوردي عن هواياته، ويبدو من سياق الكلام في هذه القصاصات أن الوردي نشر هذا الموضوع في جريدة «الإتحاد» البغدادية، ولكن المؤسف أن الزميل الأنصاري أغفل تثبيت تاريخ نشرها في الجريدة كما أغفل أن يثبت رقم عدد الجريدة الذي نشر فيها هذا الموضوع.

يوم في حياتي

٤ هوايات أمارسها منذ شبابي وحتى الآن: القراءة.. الكتابة.. المشي.. والتجول في الأسواق..

د. علي الوردي

* سألتني جريدة الإتحاد «كيف تقضي وقتك؟» أو «يوم في حياتي» وإني أود أن أنتهز هذه المناسبة لكي أتحدث للقارئ عن هواياتي التي أقضي بها وقتي.

- باستثناء أوقات النوم وتناول الطعام التي يشاركني فيها جميع الناس، فإن لي أربع هوايات أقضي فيها معظم أوقات يومي، وهي:

١ ـ القراءة.

٢ ـ الكتابة.

٣ ـ رياضة المشي.

٤ ـ التجول في الأسواق.

- أما القراءة فهي هوايتي الأولى، وقد سيطرت عليّ منذ أيام الصبا.. ولعلني لا أغالي إذا قلت إني من أكثر الناس قراءة، ولكن المؤسف أن ذاكرتي ليست قوية كما ينبغي وقد ساءت في الآونة الأخيرة إلى درجة كبيرة، وقد وصل بي الحال مؤخراً أني أشتري الكتاب وأقرأه ثم اشتريه مرة أخرى واقرأه ناسياً أني كنت قد اشتريته وقرأته سابقاً، ولست أدري أين سينتهي المطاف بي أخيراً وإني أخشى أن أصل إلى حالة النسيان المطلق وهو المرض الذي ابتليت به الممثلة الأمريكية «ريتا هوارت» وماتت به وهو الذي يسمى طبياً «الزهايمر».

- أما الكتابة فهي هوايتي الثانية وكنت مولعاً بها منذ أيام الصبا كذلك، وإني أحتفظ بكتاب مخطوط صغير كنت قد كتبته في أواخر العشرينات وهو كتاب سخيف طبعاً ولكني أحتفظ به لأنه يذكرني بأيامي الماضية وكيف كنت أفكر، وربما نشرته في المستقبل مع مذكراتي لأنه يمثل مرحلة من مراحل حياتي المليئة بالمتناقضات.

إن الكتابة كانت قبل سنوات تأخذ قسطاً من وقتي ولكنها الآن لا تأخذ منه إلا قليلاً فإن كبر سني وتوعك صحتي جعلا الكتابة صعبة عليّ وهذا من أسباب الكآبة التي أصبت بها في هذه الأيام الأخيرة من حياتي.

إن الكتابة تشغل ذهني عن التفكير في منغصات الحياة وأسأله تعالى أن يمنحني هواية أخرى تعوضني عن هواية الكتابة أو يمنحني الموت لكي أستريح وأريح!

– ونأتي الآن إلى هواية المشي وهي الهواية الثالثة التي أولعت بها بعد القراءة والكتابة فأني قد اعتدت أن أمشي ساعة أو ساعتين في كل يوم. وأعتبر المشي رياضة بدنية ونفسية في آن واحد فهي عندي نوعاً من الصلاة التي أتقرب بها إلى الله، فإن كل نَفَسٍ عميق آخذه عند المشي أذكر فيه اسم الله ولهذا أشعر بالراحة النفسية بعد كل فترة أقضيها في المشي.

– إني مؤمن بوجود خالق مدبّر لهذا الكون وأعدّ الإلحاد خطأً كبيراً فليس في مقدوري أن أتصور هذا الكون الهائل وما فيه من قوانين كبرى وأسرار قد خلق من تلقاء نفسه أو هو يسير من تلقاء نفسه، على نحو ما يقول الملحدون.

– إن أفضل أوقات المشي عندي هو وقت الغروب ولاسيما حين تكون في السماء قطع السحاب تعكس ضوء الشمس، وإني أختار جسر

الأئمة الممتد بين الكاظمية والأعظمية لكي أتمتع بالجمال الرائع الذي ينشأ عن انعكاس ضوء الشمس الغاربة على قطع السحاب المتناثرة فهو منظر اعتبر خير موضع للصلاة فيه، وإني حين أقف على الجسر أتأمل مشهد الغروب أشعر بأن الله يخاطبني.

- وحدث مرة أنني كنت أمشي على جسر الأئمة أتأمل في عظمة الخالق، فاشتبه بي الحارس لأنه لا يستطيع أن يتصور أن منظر الغروب يستحق الوقوف له والتأمل فيه، بالشكل الذي أتصوره، وحصل نزاع بيني وبينه، وإني أشكره لأنه تركني أخيراً أفعل ما أشاء وسوف أبقى أصلي لله على جسر الأئمة كلما سنحت لي الفرصة.

- وفي الختام أأتي إلى الهواية الرابعة التي أولعت بها وهي التجول في الأسواق، فهذه الهواية تلائم اختصاصي العلمي، وهو علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، ففي رأيي أن دراسة المجتمع لا تكفي فيها قراءة الكتب أو اتباع الدراسة المنهجية، ولابد للباحث الاجتماعي من التغلغل بين الناس ومخالطتهم مخالطة عفوية لا تكلف فيها.

- إن بعض مثقفينا ما زالوا ضمن قوقعتهم الفكرية القديمة، حيث نراهم يستنكفون من مخالطة العامة، ويعتبرون العلم نتاج التفكير العالي الذي يسمو على سخافات العوام وخرافاتهم. إن هذه النظرة السائدة لدى المفكرين قديماً. ومن المؤسف أنها ما زالت سائدة لدى بعض المثقفين منا.

- إن السخافات والخرافات التي تنتشر عادة بين العوام هي التي تكوّن الأسس التي يقوم عليها تفكيرهم وتوجه سلوكهم، فما نعتبره من السخافات والخرافات يعتبرونه هم من الحقائق التي لا شك فيها. ويجب أن لا ننسى أن الحقائق كلها نسبية وكل فريق من الناس مؤمن بصحة ما لديه من معلومات ومفاهيم وقيم موروثة ولا يجوز لنا أن نفسر بعقولنا وثقافتنا العالية مجموعة من السخافات والخرافات في نظر من هم أعلى ثقافة منا.

- كنت في أيام شبابي وكهولتي أكثر من ارتياد المقاهي بالإضافة إلى التجول في الأسواق ولا حاجة بي إلى القول إن المقاهي على درجات متفاوتة من حيث المستوى الثقافي فيها، فهناك المقاهي التي يرتادها المثقفون، وهناك المقاهي التي يرتادها العوام، وأستطيع أن أقول إن المقهى كلما كان أوطأ في مستواه الثقافي كان أكثر نفعاً للباحث الاجتماعي. فقد اعتاد المثقفون أن يغطوا أعماقهم النفسية بمقولاتهم الحذلقية العالية، ولهذا من الصعب على الباحث أن يكتشف أعماقهم. أما العوام فهم لا يعرفون التمنطق والتحذلق، وهم يكشفون أعماق أنفسهم بلا نفع أو تكلف، وهذا يصدق بوجه خاص في المقاهي المحلية التي يجتمع فيها أبناء المحلة يتحدثون فيها عن مشاكلهم وعن تقييمهم للأشخاص والأحداث الخاصة بمحلتهم أو بلدتهم أو طائفتهم.

- يؤسفني أنني لا أستطيع ارتياد مثل هذه المقاهي في شيخوختي، فإن ارتيادها من قبل شخص مثلي يجلب عليه الريبة والتهمة. فإن الناس لا يستطيعون أن يفهموا كيف يمكن أن تكون المقاهي المحلية مصادر علمية للباحث الاجتماعي وهذه نظرة الناس للعلم بوجه عام، فالعلم في نظرهم يجب أن يسمو على خرافات العوام وسخافاتهم كما أشرت إليه آنفاً.

- ولعل من المناسب هنا أن أذكر حادثة حدثت لي في مدينة شرقية كنت أزورها، وقد ذهبت أتجول في المبغى الكبير الذي فيها ولا حاجة بي إلى القول بأن المبغى هو خير مكان يمكن للباحث الاجتماعي أن يدرس فيه المجتمع، فرآني رجل من العوام يعرفني، وصار بعدئذ يقذع في دمي لأنه رآني أتجول في المبغى وحاول شخص من أصحابه أن يدافع عني قائلاً إني إنما دخلت المبغى من أجل الدراسة.. فأجابه الرجل بغضب قائلاً «عجبا هي كلجية لو كلية؟!..

مع أسنانهم.. لو كانت عندهم أسنان
أسنان الوردي

سمعت آهات الرحال والوردي ومحفوظ من الأسنان وفلتت مني (آه) الحنفي

۞ سألت ما إذا كان مهماً ومفيداً أن يتحدث المرء عن أسنان أناس يعرفهم على الرغم من أن هؤلاء من المشهورين في مجالات اختصاصاتهم.

وقد لا يرضى بعض من سأورد اسمه أن أتحدث عن أسنانه.. ربما لكي لا تنافسه في الشهرة.. أو لربما يرى أن شؤون الأسنان هي شؤون (عائلية) بحت أو أنها من الأسرار التي لا يجوز التسامح بشأن البوح بها وإذاعتها بين الناس.. ولكنني على الرغم من ذلك سأتدرع بحبي لهم وإجلالي لشخصهم لأتوقى غضب من سيغضب منهم.

الأسنان المنحوتة

حسناً، لنبدأ بالفنان الراحل خالد الرحال..

توثقت معرفتي بالمرحوم الرحال في العام ١٩٧٨ عن طريق النحات المعروف خليل الورد الذي توفاه الله أيضاً. وقد كنت معجباً بأسنانهما (رحمهما الله) وخامرني شعور بأنهما نحتا أسنانهما نحتا من مادة غير قابلة للتسوس والتلف وندبت حظي لأنني أصغر منهما بأربعين سنة ومع ذلك فإن أسناني شبه مهدمة. وأوشكت أن أطلب من الفنان خالد الرحال أن ينحت لي أسناناً مثل أسنانه لولا أنه مدّ يده إلى فمه وانتزع طقم أسنانه وقال بعصبية اشتهر بها أن طبيباً ايطالياً في روما صنع له طقم الأسنان وغشه، فهو غير مريح وأنه يضطر لخلعه عندما يأكل.. وأقسم وهو يلوح بيده بعصبية أنه إذا ذهب إلى روما.. (فقلت مع نفسي: يا ستار إنه ربما سيدمي وجه الطبيب)، ولكنه قال: (إذا ذهبت إلى روما فسأراجع طبياً غيره).

وفعلاً، عندما سافر إلى روما بعد ذلك راجع طبيباً آخر غير ذلك (الغشاش) وصنع له طقم أسنان جديداً قال عنه إنه مريح ولكنه عندما ألقى كلمة في الندوة التي عقدت في مبنى المجلس الوطني لمناقشة نصبي الجندي المجهول والشهيد توقف، بعد دقائق، من بدء الكلمة ليخلع طقم أسنانه أمام الحاضرين ويضعه في جيبه قائلاً لهم: «إن هذه الأسنان تضايقني»، مما أثار موجة من الضحك.. ربما لأنهم كانوا مثلي مخدوعين بأسنانه (المنحوتة).

وقبل أيام حدثني مساعد الرحال الفنان عبد المطلب مهدي الذي يتولى العمل حالياً في مشغل الرحال ومصهره أن ضيوفاً زاروا الرحال في مصهره بينهم سيدتان جميلتان فأرسله الرحال إلى مطعم قريب ليجلب لهم لحماً مشوياً (تكة)، وعندما جلسوا يأكلون والرحال معهم أصر الرحال على أن يقطع لحمة استعصت عليه، فإذا بطقم أسنانه ينخلع من فمه ويطير بعيداً ليستقر على الأرض، فيجفل الضيوف وتصرخ السيدتان الجميلتان بفزع ظناً منهم أن فكي الرحال قد خلعا.

كان الرحال قد أخبرني أن أسنانه كانت قوية، ولكنه فقدها جراء معركة نشبت مع أحد الأشخاص إذ ضربه على فمه فتهدمت أسنانه.

آه الوردي

ويوشك الدكتور علي الوردي عالم الاجتماع العراقي المشهور أن يلج الثمانين من عمره المديد، ومع ذلك فإنه لم يخلع سناً واحداً من أسنانه التي ما تزال عامرة، إلا أنه في العام الماضي شكا من ألم شديد في ضرس من أضراسه فصحبته إلى طبيب الأسنان الصديق محمد رضا أبو التمن الذي أشار عليه بخلع الضرس لأنه معطوب.. وبعد تردد قليل وافق الدكتور الوردي على المباشرة بذلك، فأعطاه الطبيب جرعة مخدرة وعانى الوردي كثيراً وهو يخلع هذا الضرس،

وسمعت الدكتور الوردي وهو يصيح (آه... آه).. وأمام ألم الأسنان وجراءه سمعت لأول مرة (آه الوردي) التي لم تنطلق منه أمام أشد هجمات النقد عنفاً عليه.

حفر ونقر ونخر وكسر

وعلى الرغم من أن العلامة الدكتور حسين علي محفوظ أصغر سناً من الدكتور الوردي، فبينهما تشمخ (١٤) سنة فقد بدأ بمراجعة طبيب الأسنان منذ الصغر، ويخطر بباله أن أول طبيب راجعه كان الدكتور (أنطوان) في مستشفى (المجيدية) وهي جدة مدينة الطب، ومن الأطباء الذين يراجعهم ويعتز بهم وباستشارتهم الدكتور هادي الجمالي، وهو من حذّاق أطباء الأسنان في العراق، ويرعاه ألآن كبار أساتذة الكلية الطبية.

ولم تشفع كل تلك الرعاية والعناية والاهتمام المخلص الصادق من أصدقاء الدكتور محفوظ بأسنانه، فهي (منخورة محفورة منقورة مكسورة) كما يصفها هو بنفسه.

ويسبب هذا النخر والحفر والنقر والكسر في أسنان الدكتور محفوظ إحراجات كثيرة له، فقد يتصور بعضهم أنه يلحن في كلامه وهو شيخ النحاة، والسبب هي الأسنان وفقدان بعضها وتباعدها عن بعض.

وليس في تاريخ البشر أقوى وأعمر من أسنان الشيخ جلال الحنفي، فهو لم يشك منها أو لم نسمع أنه شكا منها، على الأقل، إلا أنه لم يثبت لي أو لأحد غيري ما إذا كانت أسنان الشيخ طبيعية أم اصطناعية.

والشيخ جلال ممن لا تدنو منه العلل ولا تقربه الأسقام والحمد لله ونعوذه بالمقلقلتين والمقشقشتين سورتي الفلق والناس من شر ما خلق ومن شرّ حاسد إذا حسد.

تبدو أسنان الشيخ لمن يراها وكأنها قطعة واحدة (ما شاء الله) ولكنني أعجب كيف لم يتطرق إليها الأستاذ عبد الحميد العلوجي عندما كتب مؤلفه (عطر وحبر) وهي من أخوات ما ذكر وما أكثر كان وأخواتها.

والمعروف أن الحنفي على الرغم من رقته ولطفه لا يحتمل النقد ولا يقبل الانتقاد (واللهم لا تجعل كلامنا عن أسنانه نقداً أو انتقاداً)، فمرة نقده أحد أطباء الأسنان المعروفين في بغداد بكلمة متجنية في إحدى الصحف فغضب منه الشيخ وثار وهدد بأن يذهب إلى عيادة الطبيب ويقتص منه بالقتل و(القتل أنفى للقتل) و(لكم في القصاص حياة).

الوردي ولد من جديد
وفاة الوردي

سلام الشماع

جريدة الجمهورية

«كتبت هذا المقال لجريدة الجمهورية اثر وفاة الوردي في ١٣ تموز ١٩٩٥ ولكن رئيس التحرير أصر على عدم نشره خوفاً من أن يكون للنظام رأي آخر بالوردي!!»

كنت أسير خلف جثمان العلامة علي الوردي، المحمول على أصابع محبيه يوم الخميس الماضي، وأنا شارد النظرات، واجم غير مصدق أن الوردي غادر عالمنا وارتقت روحه الطاهرة إلى ربها العظيم.

يالسخرية القدر، لقد طافوا بجثمان الوردي في الشوارع والأماكن التي كان يروح ويغدو فيها كل يوم مسلماً على أصحاب دكاكينها، متحدثاً معهم، محاولاً الوصول من خلال أقوالهم إلى صحة ما وضعه من افتراضات في علم الاجتماع.

لقد انتصر المرض اللعين على الوردي العملاق، إذن؟!..

كان الوردي، حتى قبل أن يكتشف المرض قد أعدّ لمقاومته عدّتها، فقد كان يشتري دائماً أنواعاً مختلفة من الأعشاب الطبية ويخلطها بإتقان، وهو العطار القديم، ثم يتناولها ليبعد عن خاطره شبح المرض.

لقد مات الوردي وسيأكله الدود، كما كان يقول.. ولكن من سيجعلني أصدق ذلك، وقد كنت وإياه كندماني جذيمة، على الرغم من الفارق الكبير بين عمرينا.

آخر مرة التقيت به، كانت في بيت الصديق محمد الخاقاني، وكان انهياره قد بدأ.. تحدث، وقتها، عن الحصار الاقتصادي الذي تفرضه الأمم المتحدة على العراق وشحة الدواء والغذاء وأمور أخرى لها صلة بمعاناته، ثم سلمني، مرة أخرى، نسخة من رسالة قديمة كان قد وجهها إلى رئيس جامعة بغداد لعلها لم تصل إليه.. وتتطلب مني الأمانة أن أنقلها نصاً:

سيدي رئيس الجامعة:

إني قد أحلت على التقاعد من الجامعة بناءاً على طلبي في عام ١٩٧٠، وقد منحتني الجامعة في حينه لقب (أستاذ متمرس) كما وصلني من رئيس الجامعة كتاب سجل فيه تقديره وتقدير الجامعة لي بعبارات ما زلت أعتز بها. ولكني في السنوات الأخيرة علمت أن

بعض المسؤولين في الجامعة وغيرها لا يرضون عن منحي هذا اللقب، أو هم ينكرون وجوده. وقد صارحني أحدهم ذات مرة بأني متقاعد فقط لا غير. وقد كانت لي منضدة خاصة بي في قسم الاجتماع من كلية الآداب ثم رُفعت أخيراً بحجة أنهم محتاجون إليها في مكان آخر. أضف إلى ذلك أني لم أدعَ إلى أية ندوة أو اجتماع يدعى إليه غيري من الأساتذة المتمرسين — مع الأسف الشديد!

سيدي رئيس الجامعة

إنّي لا يهمّني أن أكون أستاذا متمرساً أو متقاعداً، فهما سيّان في نظر من هو مثلي يعيش في أيامه الأخيرة. ولكنّ الذي يهمّني هو أن أعرف الحقيقة في هذا الصدد. فإنّي قد كتبت على غلاف كتبي التي صدرت بعد عام ١٩٧٠ بأنّي أستاذ متمرس، وربّما صدرت لي كتب أخرى في أواخر أيامي. فالرّجاء منك تبيان الحقيقة لي لكي أعلن ذلك للقرّاء فلا يبقون مخدوعين بي.

والله الساتر على كل حال

علي الوردي

١٩٨٩/٩/١٤

كان الوردي قبل هذه الفترة يفكر بانجاز كتاب وصفه لي بأنه كتاب العمر وهو يدور حول طبيعة البشر، وهو ليس الكتاب الذي صدر له مؤخراً خارج الحدود بهذا العنوان، فقد أراد الناشر أن يروج لبضاعته، فوضع لها عنوان آخر الكتب المخطوطة للمرحوم الوردي.. وأنا لا أدري هل أنجز المرحوم الوردي هذا الكتاب أم لا.. وأعرف أن له كتباً ما زالت مخطوطة تحمل قناعاته الأخيرة في علم الاجتماع وشخصية الفرد العراقي ودراسات علمية مختلفة.

ومن المؤسف أن الناشر المذكور زعم في صحيفتين إحداهما خليجية وأخرى أردنية أن المرحوم الدكتور علي الوردي عندما توفي تركت جنازته على قارعة الطريق وأن أحداً لم يجرؤ على الوصول إليها، في حين أننا خرجنا في هذا التشييع الذي كان مهيباً ولم تشهد مدينة الكاظمية مثيلاً له في يوم ١٣/٧/١٩٩٥ فقد مشى خلف جنازة الوردي طلبته وأصدقاؤه ومحبوه وعامة الناس من مثقفين وحمالين وبقالين وأغنياء وشحاذين وعلماء دين ومسؤولين حكوميين.

لكن المشكلة التي بقيت مستعصية على الحل حتى وأنا أرى بعيني جثمان الوردي وهو يوارى في التراب في المقبرة الملاصقة لجامع براثا في بغداد، هي: من سيقنعني أن الوردي قد مات حقاً؟!!..

إني أرى أن الوردي ولد عندما أودعنا جثمانه تراب كرخ بغداد وعدنا إلى بيوتنا من دونه..

الديمقراطية في الإسلام

د. علي الوردي

القرآن كتاب رباني عظيم، وهو سجل الثورة المحمدية، ولكن المترفين يستطيعون أن يأولوه ويفسروه كما يشتهون، فيخرجونه من طبيعته الأصيلة ويجعلونه بضاعة من بضائع الموتى. فلا يكاد يموت منهم ميت حتى يحشدون في سبيله عدداً كبيراً من «القراء» ليمطروه بوابل من الختمات والرحمات ___انه كان مرحوما.

بدأ الإسلام في أول أمره نظاماً ديمقراطياً. ولكن الديمقراطية اختفت منه بعد ما رفع معاوية المصاحف وقال للمسلمين: تعالوا نحتكم إلى كتاب الله. وكانت نتيجة الاحتكام إلى كتاب الله أن تولى يزيد أمر المسلمين وقال:

لعبت هاشم بالملك فلا

خبر جاء ولا وحي نزل

ونحن حين نشاهد الترف الخبيث مستحوذا على سلاطين المسلمين وأمراء المؤمنين يجب أن لا ننسى تلك الثورة الشعبية الكبرى التي قام بها أبو ذر وعمار وعلي بن أبي طالب في مكافحة هذا الترف عند أول ظهوره في تاريخ الإسلام.

لقد كانت تلك الثورة فاشلة. لا شك في ذلك. فهي قد سبقت زمانها بعدة قرون، حق لها إذن أن تفشل. ولكنها مع ذلك بقيت في التاريخ رمزا لديمقراطية الإسلام ودليلا صارخا على أن حكومة الإسلام نشأت في أول أمرها من الشعب وبالشعب ومن أجل الشعب.

يقول المؤرخون الغربيون إن حكومة الإغريق كانت أول ديمقراطية وآخر ديمقراطية في التاريخ القديم. ونسى هؤلاء حكومة الإسلام الأولى التي تمثلت في محمد وخلفائه الراشدين.

ولو درسنا سيرة هؤلاء في أيام حكمهم لوجدناهم ديمقراطيين إلى درجة لا يستهان بها.

يروى أن أبا بكر اعتاد قبل خلافته أن يحلب للضعفاء من جيرانه أغنامهم كرما منه ورفقا بهم. فلما تولى الخلافة سمع جارة له تقول: «اليوم لا تحلب لنا...» فقال: «لعمري لأحلبنها لكم...» وأخذ يحلبها فعلا.

وعندما تولى علي بن أبي طالب خلافة المسلمين بعد عثمان اتضحت في سيرته معالم الديمقراطية وضوحا مدهشا. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن ديمقراطية هذا الرجل وصلت إلى درجة يعجز عن الوصول إليها كثير من حكام القرن العشرين.

وهو في الواقع آخر حاكم في تاريخ الإسلام انثالت العامة على بيعته طوعا واختياراً. وقد أشار هو إلى ذلك حيث قال: «إن العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر». أما الخاصة فقد بايعه معظمهم. وحين رفض بعضهم بيعته تركهم أحرارا، فلم يجبر أحد منهم عليها، وإنما خلى بينهم وبين ما أرادوا من الاعتزال، وقبل منهم ما قدموا من عذر، وقام دونهم يمنع الثائرين من أن يصلوا إليهم.

والأعجب من هذا أن عبد الله بن عمر أبى أن يبايع علياً ثم طلب الإذن بالسفر. فلما طولب بكفيل يكفله، أبى أن يأتي به، فقام الإمام علي يكفله بنفسه. ولم يشهد التاريخ حاكما يكفل رجلا أبى بيعته ورفض أن يطيعه. وتلك لعمري آية من آيات الديمقراطية يعجز عن الإتيان بها كثير من الناس.

وكان علي جالساً بين أصحابه ذات يوم يتحدث إليهم فقال رجل من الخوارج يصف علياً: «قاتله الله كافرا ما أفقهه». فوثب القوم ليقتلوه فقال علي: «رويدا. إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب».

ولو درسنا معاملة الإمام علي للخوارج الذين كفروه وشتموه في وجهه وتآمروا عليه في عاصمته لرأينا فيها عجبا. فهو قد كان يتحمل منهم ذلك صابرا. فكان يعطيهم عطاءهم المفروض لهم ويجادلهم جدالاً طويلاً لعلهم يتدارسون أمرهم ويثوبون إلى رشدهم. ولم

يقاتل منهم إلا تلك الجماعة التي خرجت عليه بالسيف وقطعت طريق السابلة وأذاعت الذعر في الناس وقتلت عبد الله بن خباب مع نسوة كن معه. فأرسل إليهم الإمام رسولا يسألهم عن هذا الفساد فقتلوا الرسل أيضاً. ولم يبدأ بقتالهم إلا بعد أن استنفذ جهده في محاجتهم وجدالهم، بالكتابة مرة وبالمشافهة أخرى.

يقال أن أحد الخوارج، واسمه الخريت بن راشد الناجي، جاء إلى علي بعد انقضاء معركة صفين. فجرت بينهما المحاورة التالية:

الخريت: لا والله لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك واني غدا لمفارق لك.

علي: ثكلتك أمك. إذن تنقض عهدك وتعصي ربك ولا تضر إلا نفسك. أخبرني لم تفعل ذلك؟

الخريت: لأنك حكمت في الكتاب وضعفت عن الحق إذ جد الجد وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم. فانا عليك راد وعليهم ناقم ولكم جميعا مباين.

علي: ويحك هلم إليّ أدارسك وأناظرك في السنن وأفاتحك أمورا من الحق أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت الآن منكر وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل.

الخريت: فإني غاد عليك غدا.

علي: اغد ولا يستهوينك الشيطان، ولا يتقحمن بك رأى السوء ولا يستخفنك سبيل الرشاد.

فانصرف الخريت من عنده ولم يعد غدا ولا بعد غد، وبقي على مفارقته. فجاء أحد أصحابه يشير عليه بان يقبض على الخريت ويستوثق منه. فأجابه الإمام: «لو فعلنا هذا بكل من يتهم من الناس لملأنا السجون منهم. ولا أراني يسعني الوثوب بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يظهروا لي الخلاف».

يعطينا هذا الجواب تحديدا واضحا للديمقراطية. فالإمام علي لا يحاسب أحداً على رأي فاه به ولا يعاقبه على تهمة أتهم بها. إنما هو يعاقب الرعية حين يظهرون له الخلاف أو يقطعون الطريق أو يقلقون الأمن. وأظن أن هذا هو ما تسير عليه الديمقراطية في يومنا هذا.

والواقع إن الإيمان الذي يتحمله المؤمن في سبيل إيمانه يصهر نفسه ويصبها في قالب جديد. وهو إذن يختلف عن ذلك الذي يدخل الدين استسلاماً أو يتظاهر به طمعاً بالغنيمة.

وقد أشار الإمام علي في إحدى خطبه إلى المنافع النفسية والاجتماعية التي تنبعث من اضطهاد الدين في بدء دعوته: «فان الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين بأوليائه المستضعفين في أعينهم». فلو ظهر الدين قويا منتصرا منذ أول أمره، لدخل فيه جميع الناس ولانتفى بينهم عامل الامتحان والاختبار. «ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم

بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم...».

والقرآن يشير إلى مثل هذا المعنى أيضا، حيث يقول: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». ووصف القرآن المهاجرين والأنصار فقال: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم».

ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة أن أكثرية المهاجرين والأنصار انضموا إلى جانب علي أثناء خلافته. ولم يتخلف عنه منهم سوى نفر قليل. ومما يلفت النظر أن الأنصار كلهم كانوا مع علي باستثناء ثلاثة فقط. اثنان منهم ذهبا إلى معاوية هما النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد، والثالث هو محمد بن مسلمة الذي اعتزل الفريقين.

يحكى أن معاوية أرسل أبا هريرة والنعمان بن بشير إلى الإمام علي يسألانه أن يدفع قتلة عثمان إليه ليقتص منهم. فلما أتيا علياً التفت علي إلى النعمان فقال له: «حدثني عنك يا نعمان هل أنت أهدى قومك سبيلا؟... فكل قومك قد اتبعني إلا شذّاذ منهم، ثلاثة أو أربعة، أفتكون أنت من الشذاذ؟». فقال النعمان: «أصلحك الله.

إنما جئت لأكون معك فألزمك. وقد كان معاوية سألني أن أؤدي هذا الكلام ورجوت أن يكون لي موقف اجتمع فيه معك وسمعت أن يجري الله تعالى بينكما صلحا. فإذا كان رأيك غير ذلك فانا ملازمك وكائن معك» وبقى النعمان مع علي زمنا ثم هرب منه إلى معاوية لسبب لا نعرفه.

والظاهر أن معاوية أحس بضعف موقفه من هذه الناحية. فلقد حاول أن يجتذب إليه عددا كبيرا من المهاجرين والأنصار ليوازن بهم ما كان عند علي منهم، وبذل في سبيل ذلك أموالا طائلة، فلم يوفق.

التحق بمعاوية من الأنصار اثنان فقط، كما مر بنا. أما المهاجرون فلم يلتحق به منهم سوى أولئك الذين هاجروا إلى المدينة قبل الفتح بمدة قصيرة كأبي هريرة وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة. وهؤلاء لا نستطيع أن نعدهم من المهاجرين الصادقين لأنهم هاجروا يوم أخذت علائم الانتصار تبدو بجانب محمد وصارت قريش تخشى من هجوم المسلمين عليها في مكة. ولما فتحت مكة بعد ذلك انقطعت الهجرة حيث قيل: «لا هجرة بعد الفتح».

ويخيل لي أن معاوية أخذ يفكر في هذا الأمر ويطيل التفكير، لعله يستطيع أن يجد له طريقة تستر عليه ضعف موقفه ذاك. وأظن انه وجد هذه الطريقة أخيراً. فقد رأيناه يهمل ذكر المهاجرين والأنصار

في كتبه وخطبه ويذكر بدلا منه اسم «الصحابة». واسم «الصحابة» ذو معنى واسع يمكن أن يستوعب عددا كبيراً من الناس، سواء فيه أولئك الذين قاتلوا النبي أو قاتلوا معه. فبمجرد أن يسمع المسلم حديث النبي أو يحضر مجلسه أو يسلم عليه صار صحابيا ودخل في قائمة «المقدسين».

وجاء أبو هريرة لمعاوية بحديث يرويه عن النبي حيث قال فيه: «أصحابي كالنجوم، أيهم أقتديتم اهتديتم». وأحسب أن معاوية فرح بهذا الحديث كثيرا، فهذا الحديث يعطيه الحق بان يقول لعلي: عندي من الصحابة ما عندك. مثلي مثلك.

والواقع أن معاوية كان يملك بين يديه عددا كبيرا من الصحابة من طراز أبي هريرة والمغيرة بن شعبة ومروان بن الحكم ومن لف لفهم. وأخذ هؤلاء يملأون الدنيا بأحاديث صاحبهم رسول الله صلاة الله وسلامه عليه. وكان معاوية يغدق على كل من يأتيه منهم بحديث نبوي يرضيه مبلغا لا يستهان به من الأصفر الرنان.

أما المهاجرون والأنصار الذين كانوا مع علي فقد انكسف شأنهم وصاروا كأنهم قطرة من بحر في هذا الحشد الحاشد من الصحابة رضي الله عنهم.

ولم يكتف معاوية بهذا، بل أخذ ينكر على المهاجرين والأنصار حق الشورى بتاتا. وليته حول هذا الحق إلى الصحابة. إنما حوله

إلى أهل الشام فقط دون الناس جميعا. فلما ذكره الإمام علي بحق المهاجرين والأنصار في الشورى كتب إليه يقول: «... وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان. فان فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام...».

يلاحظ في هذا الجواب أن معاوية لا يذكر المهاجرين والأنصار باسمهم الذي سماهم به القرآن. إنما سماهم «الحجازيين». وهو يتهمهم بقتل عثمان، ولهذا فهم قد فارقوا الحق في نظره وفقدوا حق الشورى من جراء ذلك. وأصبح الحكام على الناس إذن أهل الشام لأنهم يطالبون بدم عثمان.

ومن يتأمل في وضع أهل الشام حينذاك يجدهم لا يعرفون الشورى ولا يؤمنون بها. وقد اشتهروا في التاريخ بأنهم كانوا من أطوع الناس لولي أمرهم كائنا من كان. ومعنى هذا أن الشورى انقلبت عندهم إلى «طاعة». يقول المسعودي إن أهل الشام بلغوا في طاعتهم لأمر معاوية أنهم صلوا خلفه صلاة الجمعة في يوم الأربعاء، حيث اقتضت مشيئة معاوية ذلك عند مسيره إلى صفين.

وكان معاوية قد عود أهل الشام على طاعة السلطان وعلى عدم الجدل في أمره منذ زمان بعيد. ورأيناه في أيام عثمان يمنع كل محدث منطيق من الاختلاط بأهل الشام. فلما اختلط أبو ذر

بفقراء الشام وأخذ يحدثهم كتب معاوية إلى عثمان يقول له: إن أبا ذر يريد إن يفسد أهل الشام. واتخذ معاوية لنفسه الحراس والجلاوزة، يسيرون معه في موكب إذا سار في شوارع الشام، كما تفعل القياصرة تماما.

أما علي بن أبي طالب فكان يسير في الكوفة على غير هذه السيرة. قيل انه كان يمشي في شوارع الكوفة منفردا فيتحدث إلى البقال والقصاب، ويجالس أصحاب الدكاكين. وحدث مرة أثناء مسيره إلى صفين أن بعض دهاقين الانبار رأوه فترجلوا وأخذوا ينحنون بين يديه كما اعتادوا أن يفعلوا في سالف الأزمان. فقال لهم: «ما هذا الذي صنعتموه؟» قالوا: «خلق منا نعظم به أمراءنا». فقال: «والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون على أنفسكم في دنياكم وتشقون به في آخرتكم...».

وعند رجوعه من صفين افتقد درعه، ثم وجده عند نصراني. فأمسك به وجاء به إلى قاضي الكوفة. ووقف الإمام مع النصراني جنبا إلى جنب يترافعان بين يدي القاضي. ولما لم يستطع الإمام الإتيان ببينة قضى القاضي بالدرع للنصراني فأخذه ومشى والإمام ينظر إليه...».

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: إن النزاع بين علي ومعاوية لم يكن خلافا على شيء واحد ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو

ذاك، ولكنه كان خلافاً بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين: أحدهما يمثل الخلافة الدينية والآخر يمثل الدولة الدنيوية.

ولنا أن نقول هنا إن عليا كان ينظر في «الحق» بمنظار آخر، إذ كان يعتبر الإسلام دينا قبل أن يكون دولة، وهو قد جاهد في سبيل العدالة والمساواة أكثر مما جاهد في سبيل الفتح والغلبة.

يتهم بعض المستشرقين محمدا بأنه كان من طراز جنكيزخان، قائدا بدويا وجه أمته نحو الغنيمة والغلبة. ولذلك شرع لأتباعه شرعة الحرب والقتال بخلاف ما فعل المسيح قبله.

نسي هؤلاء أن محمدا سار سيرة المسيح في بدء دعوته، حيث أخذ يدعو إلى ربه بالطريقة السلمية ويحض أتباعه على العفو والصبر ومقابلة السيئة بالحسنة. وبقي على ذلك مدة طويلة تناهز ثلاثة عشر عاما. وكانت نتيجة ذلك أن قريشا اجتمعت على قتله وكادت تنجح فيه، لو لم يهيئ الله له خيط العنكبوت وبيض الحمام كما هو معروف. ولو أن قريشا نجحت في قتله آنذاك لذهب محمد في التاريخ كما ذهب أخوه المسيح من قبل، ولما وجد المؤرخون بينهما فرقا كبيراً.

ولم يكد محمد يصل المدينة سالما، بعد هذه الحادثة، حتى بدأ يغير خطته تجاه قريش. فقد أدرك بعد التجارب المرة التي مرت عليه في مكة أن قريشا لا ترضخ لدعوة إلا إذا أخضعها بحد السيف.

وأدرك كذلك أن العرب لا يدخلون في الإسلام إلا إذا انتصر على قريش. وكان العرب يقولون: «دعوا محمدا يقاتل قومه فان نجح فهو نبي حقا».

يتساءل البروفسور توينبي: أكان محمد نصابا يريد الملك أم كان نبيا يريد الإصلاح؟. يقول توينبي في الجواب على ذلك: إن سيرة محمد في بدء دعوته تدل على أنه كان صادقا في إيمانه مخلصا لرسالته. أما ما حدث بعد الهجرة من تحول في سيرته فمرده إلى انه كان يعيش في مجتمع يختلف عن مجتمع المسيح اختلافا كبيراً.

وقد أشار البروفسور نكلسون إلى أن معركة بدر هي أول حادثة لفتت نظر القبائل البدوية إلى محمد وأثارت إعجابهم به. ويقول نكلسون في شأن هذه المعركة: «ومهما كان العرب قليلي الاكتراث بدين محمد، فإنهم لم يستطيعوا إلا أن يحترموا الرجل الذي أذل نبلاء مكة». ويعد نكلسون معركة بدر من أعظم المعارك العالمية التي غيرت وجه التاريخ.

نستنتج من هذا أن محمدا لم يتبع طريق الحرب حبا بالحرب والغلبة كما زعم المستشرقون من أعداء الإسلام. إنما هو لجأ إلى الحرب اضطرارا. ولولا ذلك لما قامت للإسلام قائمة في جزيرة العرب.

والواقع أن الحروب المحمدية لم تكن سوى مظهر من مظاهر الثورة الاجتماعية التي قام بها. والثوار في جميع الأزمان يتبعون في بدء دعوتهم طريق السلم، فإذا اجتمع لديهم من الأنصار عددا كافيا عبأوهم تعبئة القتال وأخذوا يشنون على خصومهم حربا شعواء قد تقضي على ما كان لهم من مكانة اجتماعية وترف باذخ.

هذا هو «الحق» الذي فهمه علي بن أبي طالب وجاهد في سبيله. فالأمر ليس جهادا في سبيل الفتح والغلبة كما ظن معاوية ومن لف لفه من وعاظ السلاطين. والإمام علي إذن لا يهتم بمصلحة الدولة بقدر اهتمامه بمصلحة الشعوب التي تحكمها تلك الدولة.

يقول وعاظ السلاطين: إن معاوية كان أقدر على سياسة الشعوب من علي. فعلي شتت بسياسته الديمقراطية شمل الجماعة، أما معاوية فقد كانت خلافته مصدر بركة واتحاد ونصر للمسلمين.

ما درى هؤلاء أن المجتمع البشري لا يمكن توحيده على رأي واحد، حتى ولو جاء جبرئيل نفسه يقوده. فالتنازع البشري طبيعة اجتماعية لا مناص منها ومن يحاول توحيد الناس على رأي واحد هو كالذي يريد صد تيار المياه الدافقة عن المسير. ولهذا كانت وحدة الجماعة التي أقامها معاوية مؤقتة. فلم يكد يموت معاوية حتى رجع المسلمون إلى تناحر أبشع مما كان قبلا. ولم يتحد المسلمون في عهد معاوية إلا لكي يتفرقوا بعده على شكل أضرّ وأعمق.

وقد يصح أن نقول بان الذي يريد توحيد الجماعة في حزب واحد، إنما هو يزيد في التفريق عاملا جديدا. وخلاصة ما يفعله هو أنه يضيف إلى الأحزاب المتناحرة حزبا آخر.

وإذا أجبر السلطان رعاياه على طاعته رغم آنافهم، أدى ذلك إلى ازدياد النفرة منه. والذي لا يعترض عليه علانية ينقم عليه سرا. وكل ضغط يولد انفجارا، كما قيل.

حاول يزيد أن يدخل المسلمين في طاعته عن طريق العنف. فحدث من جراء ذلك مجزرة كربلاء ومجزرة المدينة وهدم الكعبة. وكان أهل الشام بعد واقعة الحرة يقولون للفرد من أهل المدينة: «بايع على انك عبد قن ليزيد». فان أبى ضربوا عنقه، فكانت مذبحة ذريعة. وكانوا يرمون الكعبة بالمنجنيق ويصيحون: «الطاعة الطاعة».

فكان من نتائج هذه المذابح أن انتشر التذمر بين الناس. ولقد نسى دعاة «الطاعة» أن كل فرد يقتل على يدهم في سبيل هذه الطاعة يجعل عشرة أفراد من ورائه متذمرين ينتهزون الفرصة للانتقاض على «أمير المؤمنين».

وصف الخصوم علياً بأنه سفك دم المسلمين. وهذا الوصف ذاته هو الذي قال به أعداء محمد حين سموه «نبي الحرب». كأنهم يظنون أن مكافحة الظلمة والمترفين أمر هين جدا يستطيع أن يقوم به المصلح عن طريق الخطب والمواعظ الرنانة.

يقول علي في إحدى خطبه: «ولقد كنا مع رسول الله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا: ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما... وصبرا على مضض الألم، وجدا في جهاد العدو... ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم ما قام للدين عمود، ولا اخضر للإيمان عود وايم الله لتحتلبنها دما ولتتبعنها ندما». وهذه الكلمة من علي تشبه في مغزاها الاجتماعي تلك الآية التي أذنت بالقتال للمهاجرين والأنصار عند الهجرة. وهي تشير إلى أن الدين لا يقوم إلا بالكفاح والتدافع الاجتماعي. وما الهجرة في الواقع إلا نضال وتضحية، وترك للمال والأهل في سبيل مكافحة الطغاة المترفين.

فعلي كان يعتقد أن الهجرة انقطعت بعد معركة بدر. وقد أشار إلى ذلك في أحد كتبه إلى معاوية. فقد كان معاوية يستعين ببعض المهاجرين الذين التحقوا بالنبي بعد بدر كأبي هريرة وابن العاص. فكان من رأى الإمام علي أن هؤلاء ليسوا بمهاجرين صادقين، إذ هم قد هاجروا إلى المدينة بعد أن اتضحت معالم النصر بجانب محمد. فالمهاجرون في نظر علي هم أولئك الذين التحقوا بمحمد يوم كان الإسلام مكافحا غير منتصر.

والغريب أن نجد قريشا تعتبر الهجرة مستمرة، فهي لم تنقطع بمعركة بدر ولا بفتح مكة. ولهذا كانت قريش تسمى الشام في عهد بني أمية: «دار الهجرة». نستنتج هذا من القول الذي أدلى به القائد

الأموي عند هجومه على المدينة في أيام يزيد حيث خاطب أهل الشام قائلا: «إنكم أهل البصيرة ودار الهجرة، ووالله ما أظن ربكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضى منه عنكم...».

ويخبرنا ابن خلدون إن أحد أصحاب النبي سكن البادية في أيام الحجاج فقال له الحجاج: «ارتددت على عقبيك، تعرّبت». والحجاج يشير بذلك إلى أن الرجوع إلى البادية هو بمثابة الارتداد عن الدين وترك الهجرة. ولهذا نرى الأمويين يصنفون المسلمين في عهدهم إلى نوعين: أعراب ومهاجرين. فالمهاجر في نظرهم هو الذي يترك حياة البادية ويلتحق بجيشهم الفاتح الغانم السائح في الأرض.

قلنا ونعيد القول هنا: إن الديمقراطية الحديثة ليست إلا ثورة «بيضاء»، حيث يبدل الشعب حكامه بواسطة الانتخاب حينا بعد حين. والشعوب الآن تستخدم أوراق التصويت لعين الغرض الذي كانت تستخدم السيوف من أجله قديماً.

وهنا يجب أن لا ننسى أن الثورة الديمقراطية لم تصبح «بيضاء» دفعة واحدة. فلقد كانت في مبدأ أمرها «حمراء» وظلت كذلك زمنا طويلا. ونحن حين نتمتع اليوم بهذه الثورة البيضاء يجدر بنا أن نذكر أولئك الأبطال الذي بذلوا في سبيل تصويرها دماءهم.

وعندما نمجد ذكرى الثورة الفرنسية أو الانكليزية أو الأمريكية أو غيرها، يجب أن نمجد كذلك ثورة علي والحسين وزيد وغيرهم

من أولئك الذين ضحوا بأنفسهم من أجل هذه المبادئ التي نجني ثمارها في هذا العصر.

لقد استبدلت الديمقراطية الحديثة مبدأ الحكم الإلهي بمبدأ المحاسبة والمراقبة كما قال مونتسكيو. وأصبح الحاكم اليوم فردا من الناس تستخدمه الأمة في شؤونها العامة فإذا رأت منه اعوجاجا صفعته على وجهه وأنزلته عن كرسيه الوثير.

إن الثورة في مفهومها العلمي، كما قال هبرله، لا تعني العنف بالضرورة. فالجالس في بيته قد يعد ثائراً إذا كان مؤمنا بحقوق الإنسان كما جاءت بها الثورة الفرنسية أو غيرها من الحركات الاجتماعية الكبرى.

لو تابعنا وعاظ السلاطين في رأيهم لألغينا الأحزاب الديمقراطية، وسددنا الصحف السياسية، وقمعنا كل رأي يخالف رأينا، بحجة أن هذه الأمور تفرق الجماعة وتضعف الأمة تجاه العدو الواقف لها بالمرصاد.

نسي هؤلاء أن الظلم يضعف الأمة أكثر مما يضعفها الجدال والتنازع. وقد قيل في المأثورات الدينية: «الكفر يدوم والظلم لا يدوم». فالأمة التي تتنازع فيها الأحزاب هي أقوى على البقاء من تلك التي يكون الحاكم فيها ظالما والمحكوم ساكتاً. فالتماسك الذي نلاحظه في تلك الأمة هو تماسك ظاهري أشبه بالورم المعدي

منه بالنسيج الحي. إنه تماسك قائم بحد السيف، ولا يكاد ينغمد السيف عنه قليلاً حتى تراه قد تهاوى إلى الأرض كما يتهاوى البناء المتداعي.

يعتقد وعاظ السلاطين: إن كفاح الظالمين أمر هين جدا. فهو في نظرهم كغيره من أمور الإصلاح الاجتماعي لا يحتاج إلا إلى صب المواعظ الرنانة على رؤوس الناس: «أيها الناس لا تظلموا فان الله لا يحب الظالمين...» وهم حين يقولون ذلك يظنون أن الظالم سوف يرتدع عن ظلمه حالما يستمع إليهم. ونسوا أن الظالم لا يدري بنفسه إنه ظالم فهو يتخيل نفسه أعدل الناس وأكثرهم جهادا في سبيل الله.

والظالم حين يسمع الوعاظ يذمون الظلم يفرح كثيرا إذ هو يعتقد بان المقصود بهذا الذم أعداءه. أما هو فلا يمسه شيء من هذا الذم. وكيف يمسه الذم وهو يسير في حكمه على كتاب الله وسنة رسوله.

وهذا كان من الأسباب التي جعلت طغاة العصور القديمة يبجلون الواعظين ويجزلون لهم العطاء ويشيدون لهم المساجد الطويلة والأوقاف العريضة. وكلما كان الواعظ أكثر صراخا وعويلا في ذم الظلم كان أقرب إلى قلوبهم. ذلك أن الواعظ يذم الظالمين، بينما صاحبنا الطاغية يعتبر نفسه من العادلين.

يجيد الواعظ عندنا سبك الخطب البديعة، فيستحسنها المترفون ويقولون له عند انتهائها: «لا فض فوك. كثر الله من أمثالك». ثم يخرجون من مكان الاجتماع وقد عمرت أفئدتهم بالدعاء لخير العباد. أما العباد فيبقون كما كانوا في شقاء مقيم.

إنها مواعظ رائعة بذل أصحابها في نحتها كثيرا من أفانين النحو والصرف، والبيان والبديع. ثم يرمونها في الهواء أمواجاً يتلو بعضها بعضاً.

ومن حسن حظ البشر في الأزمنة القديمة أن هذه المواعظ كانت تقتصر في أثرها على أمواج الهواء وحده. أما في هذا الزمان فقد صارت تشمل أمواج الأثير وأمواج الضوء أيضا لاسيما بعد إنشاء محطات التلفزة والعياذ بالله.

إنها على أي حال لا تحرك إلا الأمواج، كما كان العبيد يحركون مراوح أسيادهم في قديم الزمان. فهي مواعظ للترويح أو المريخ. والأسياد يحبون من يمرخ لهم أو يروح.[1]

1- المصدر:مهزلة العقل البشري

يوم فتح مدني صالح أبواب العاصمة هيت لعلي الوردي !!

د. طه جزاع

في الجزء الثاني من كتابه القيم (هيت في إطارها القديم والحديث) الصادر عام ١٩٦٥ يذكر مؤلفه فضيلة الشيخ المرحوم رشاد الخطيب الهيتي استنتاجا للعالم المهندس البريطاني السير وليم ويلكوكس الذي عمل كثيرا في العراق مفاده (أن البقعة الكائنة قرب خليج البصرة جنوبي الناصرية بجوار مدينة أريدو القديمة والتي هي عبارة عن مجموعة من الأهواز شملتها يد العمران كانت مركزا لجنة عدن السومرية، أما جنة عدن الأكاديين الساميين فهي بقعة الشلالات الواقعة بين عنة وهيت). أما جنة عدن التي ذكرها القران في آيات كثيرة – والتعقيب في الهامش للشيخ الهيتي تأكيدا لورعه الديني – فهي الحياة الأخرى للمؤمنين الصالحين.

وهيت التي عشقها وحملها مدني صالح في قلبه ووجدانه وروحه وعقله أينما حل في الرمادي أو بغداد أو كمبردج هي هيت – الأسطورة التي فيها أشياء من هيت الواقعية بجغرافيتها المعروفة

وطبيعتها الخلابة ومجالسها ودواوينها ونواعيرها ومحلاتها القديمة ومقاهيها وأناسها لكن فيها أيضا أشياء وأشياء صنعتها مخيلته الخصبة الساحرة العجيبة الغريبة حتى تحولت هيت عنده من مدينة يسكنها إلى مدينة تسكنه، ولا عبرة لما كتبه بعضهم عن تعلق مدني صالح بمدينة هيت وعشقه لها فوالله ماعشق مدني مدينة على وجه الأرض إلا المدينة التي بناها في روحه ومخيلته!

غير أن هذه المدينة - الأسطورة التي احتلته ماكان لها أن تولد لولا هذه المدينة التي ولد وترعرع فيها بما فيها من فرات وعيون وينابيع ووديان وكهوف وقرى وبساتين ونواعير ومدن معمورة ومقلوبة وفيها قصر سعدى ومراقد عبد الله بن المبارك وأبي يزيد البسطامي والمثنى بن حارثة الشيباني ومنارة جامع الفاروق الأثرية وغيرها من المواقع والآثار التي حيكت حولها الأساطير والحكايات واختزنتها الذاكرة الهيتاوية جيلاً بعد جيل حتى تحولت هيت في خيال محبيها وعشاقها إلى أسطورة حية، أشبه بالمدن الأسطورية عند الفلاسفة والشعراء والمتصوفة والعاشقين لكنها مدينة للإنسان وليست مجرد يوتوبيا متخيلة ليس لها زمان ومكان.

هذه هي المدينة العاصمة - وفق تعبير مدني - التي فتح أبوابها لعلي الوردي بداية الخمسينيات من القرن الماضي. أما الذي دعاني لهذا الأمر، أمر صالح مع الوردي، فهو طلب الزميل الكاتب

الصحفي سلام الشماع بأن أراجع وأعلق على التقديم الذي كتبه مدني صالح لكتاب جديد للشماع من المؤمل أن يصدر قريبا عن مجالس الوردي ومعاركه الفكرية بعد كتابيه عن الوردي (من وحي الثمانين) و(تحليل شخصية الوردي) والمعد للطبع أيضا بالاشتراك مع الناقد حسين سرمك، ومن الطريف أن مدني صالح لم يسلم تقديمه للكتاب إلى الشماع إلا بعد وفاة الوردي معللاً ذلك بقوله (كل الذين مدحتهم خذلوني.. ذلك لأني خفت أن يخذلني الوردي ولم أشأ بعد تكامل التجربة أن يخذلني أحد بعد أن خذلني جميع الذين مدحتهم في الساحة الثقافية واحداً بعد واحد... وأكتب عنه اليوم فأنه غير قادر بعد الموت أن يخذل أحداً)!!

وإذا كان مدني تحرر من خوفه وهو يكتب عن الوردي بعد أن أصبح الأخير غير قادر على أن يخذله أو أن يخذل أحداً، فكيف لي أن أطمئن وأبوح بشيء عن مدني بعد موته وكلانا كان مستأنسا يوما ما لعقيدة فيثاغورس والروحانيين الهنود بأن الإنسان إذا ما مات فأنه سيعود إلى الحياة نسخا[1] أومسخا[2] أورسخا[3] أو فسخا[4]؟ ومن يستطيع إقناعي بأن مدني لايراقب الناس والتاريخ والحياة

1- النسخ : انتقال النفس من بدن إنساني إلى آخر.

2- المسخ: الانتقال من بدن إنساني إلى بدن حيواني.

3- الرسخ: الانتقال إلى جسم نباتي.

4- الفسخ: الانتقال إلى جسم معدني (جماد).

ودبابات السايكوسبيكويين الأوروأمريكيين الجدد من أعلى مئذنة هيت التاريخية، أو من على تخت في مقهى (الشاقوفة) بجانب نواعير الفرات، أو من أعلى برج جامعة بغداد في الجادرية، أو من سطح منزله في الغزالية، وهو على هيئة إنسان بجسد جديد، أو طير، أو شجرة، أو صخرة؟!

لذلك أنا أميل إلى الاعتذار لو كنت مخيرا عن البوح بأي أمر قد لا يعجب مدني فلربما أزعجه ذلك، وسأجد حينها رجلاً يشجعني على أن استمر بالتدخين مادام عمري دون الخمسين (كان ذلك عام ٢٠٠٢) أو أجد طيرا ينقر على يافوخي غاضباً، أو شجرة ترميني بغصن يابس، أو صخرة تهوي على رأسي!!.. عذراً مدني صالح.. فأنه يثقل على النفس أن اسميك ميتا.. أو راحلا.. راحلا إلى أين؟ فأتشبث بفيثاغورس لأعيدك نسخا أومسخا أو رسخا أو فسخا. ويثقل على ذاكرتي أن تكون فيها ذكرى وعلى صوتي أن تكون فيه صدى، ويثقل على قلمي أن يكتب عنك غائبا وأنت المتصوف العارف التحليلي المجتهد، وقد شبهت نفسك بجورجياس وأبيقور وبروتاغوراس، والمعري والجنيد البغدادي والحلاج ومحي الدين بن عربي، وبرناردشو وبرتراند رسل (لا احتفالي.. ولا خطابي.. ولا منبري، ولا تصفيقي، ولا يضع كلامه حيث يكفيه صمته، ولا يطلب غنى من ذات غير نفسه حيث تغنيه ذاته.. وأنه لا يريد الاحترام علانية بتقبيل اليدين ولا يريد الطاعة علانية بالتصفيق)!!

يفتخر مدني صالح بأنه مهد لعلي الوردي تمهيدا يليق بالفاتح الثقافي المجدد والانقلابي الخطير وفتح له أبواب المدينة الآمنة العاصمة هيت، وفتح له جميع أبواب الدور والمقاهي والدواوين والبساتين وأعلنه جليسا مؤنسا ومحدثا نافعا ممتعا ساحرا بالبلاغة والبيان وبالتجديد، ومن الجهابذة الفراهدة الاساطين، على جميع تخوت المقاهي بين الشاقوفة الى الدوارة وبين الدوارة الى الشاقوفة، وصدراً على أرقى الكرويتات في الدواوين.

ويقصد بذلك الفصل الذي كتبه عن الوردي في كتابه أشكال وألوان الصادر في العام ١٩٥٦ وهو عام مبكر في شهرة الوردي من دون شك، ولم يكن مدني ليفعل ذلك ويفتح له أبواب هيت ودورها ودواوينها ومقاهيها وبساتينها لو لم يكن متأكداً من أصالة هذا الفاتح المجدد.. كاظمي أعظمي بغدادي عراقي يعبر جسر الأئمة من مسقط سكنه في الاعظمية إلى مسقط رأسه في الكاظمية ويعبر الجسر نفسه في العودة من مسقط الرأس إلى مسقط السكن عبوراً تاريخياً لا عصبية ولا خرافة فيه. ثم يضعه بميزان مع طه حسين في قراءة ابن خلدون ومقدمته فنجده يرجح كفة الوردي على كفة حسين في منهج الطريقة النقدية بلا عصبيات وفي التأسيس للثقافة من إصلاح المجتمع الكاظمي الاعظمي البغدادي العراقي العربي العالمي الكوني بلا عصبيات وبلا مأزق من أثر التحرج بين

القديم الماضي والحاضر الجديد. وفي فضيلة التماسك من الداخل في الداخل ضد عوامل التفكك من داخل ومن خارج، ولا أدري كيف استساغ مدني صالح وهو في ذروة مدحه للوردي أن يكيل الكيل لطه حسين الذي (لم يكن متماسكا) وكان (يلهج بما لا يعرف ويأكل من مال ابن خلدون ويفاخر بالطريقة وبالشك عند ديكارت وديكارت بعيد عنه على كل صعيد) (!!) على حد تعبير مدني صالح رحمه الله. ومعظمنا يعرف أن طه حسين لديه عقدة من قضية (الأكل) منذ صغره بسبب عماه فكيف يأكل من مال ابن خلدون؟ وأغلبنا يعرف أيضا أن حسين قرأ ابن خلدون قراءة فلسفية لا اجتماعية متأثرا بثقافته الإغريقية على العكس مما فعله الوردي الذي قرأ ابن خلدون قراءة اجتماعية لا فلسفية وأخذ عنه مفهومي البداوة والحضارة ليقيم عليهما فيما بعد مجمل نظرته إلى المجتمع العراقي والشخصية العراقية المزدوجة مابين قيم البداوة وقيم الحضارة، فمن يأكل من مال ابن خلدون؟؟ لكن الذي فعله مدني صالح هو نفسه ما فعله منتصف الثمانينيات مع الشاعر عدنان الصائغ حين زوده مدني بشهادة اعتراف تنص على أنه - أي عدنان - أشعر شعراء العرب في كل تاريخهم بعد المتنبي ونزار قباني!! ومن فضائل الصائغ وأخلاقه الدمثة وكان يومها شاعراً يحبو تحت نصب الحرية ومن الممكن أن يصيبه ذلك بشيء من الغرور أنه

لم يأخذ هذه الشهادة على محمل الجد واستمر في تألقه الشعري ليأخذ مكانته التي يستحقها عن جدارة من دون أن يتوهم أنه أشعر شعراء العرب بعد المتنبي ونزار قباني!! ومن دون أن يعرف إلى يومنا هذا على ما أظن هل كان مدني جاداً أم ساخراً؟! ولو كان الوردي حياً لما توهم أن المنهج قد ظلّ مكسور الظهر ثلاث مرات عند طه حسين!!

ويعلن مدني صالح أنه يتفق مع الوردي بتفضيل بروتاغوراس على سقراط والسفسطائيين على السقارطة، وتفضيل افلاطون على أرسطو في البناء الحضاري سياسة وأخلاقا وتشريعا، وتفضيل أرسطو على افلاطون في البناء الثقافي علماً وأدباً وفناً، ومعلوم أن بروتاغوراس هو من أشهر السوفسطائيين وهو صاحب المقولة الشهيرة في المعرفة (الإنسان مقياس الأشياء جميعا.. هو مقياس وجود ما يوجد ومقياس لا وجود ما لا يوجد) وإن افترضنا صحة اتخاذ الوردي ومدني صالح المنهج السوفسطائي فهذا معناه أنهما نسبيان في المعرفة، أي أن الحقائق كلها نسبية ولا وجود لحقائق مطلقة، وبالتالي تصبح المعرفة الحقيقية من المستحيلات، لأن المعرفة لابدّ أن تقوم على حقائق مطلقة وما العلم إلا فرضيات أخضعت للتجربة والاختبار وتم التأكد من صحتها في جميع الظروف والمتغيرات فتحولت إلى نظريات علمية هي أساس كل علم من

العلوم.إن النظرة النسبية السوفسطائية تؤدي إلى نتيجة واحدة لا غير.. استحالة قيام العلم واستحالة المعرفة. فهل كان مدني يعني ما يقول؟ وهل يكون هذا هو السبب الذي دعاه لأن يطمئن بأن الوردي لن يخذله؟؟ ولو كان الوردي حياً هل كان سيخذله في هذا الأمر؟؟

أما أنه مع الوردي يفضلان أفلاطون على أرسطو في البناء الحضاري سياسةً وأخلاقاً وتشريعاً وتفضيل أرسطو على أفلاطون في البناء الثقافي علماً وأدباً وفناً. فهذا هو ديدن أغلب فلاسفة الإسلام وفي مقدمتهم الفارابي وابن سينا، هم مشائيون على مذهب أرسطو في العلوم الطبيعية والآداب والفنون لكنهم ينقلبون إلى أفلاطونيين حين يتعلق الأمر بالسياسة أو الأخلاق أو التشريع رغبةً أو اضطراراً من باب التوفيق بين الفلسفة والدين، أو من باب الخوف من تهم الزندقة والارتداد والإلحاد التي كانت وما زالت تلاحق المفكرين الأحرار منذ آلاف السنين ومنذ عصور الظلام ومحاكم التفتيش وإلى يومنا الديمقراطي هذا.

المحتويات



2010 الاحتماء بالنص لا يحمي اللص



ليست المجالس الوردية بحاجة إلى تمهيد كي نستوعب أهميتها وندرك عمقها ...
إنها جولات معرفية لرجل عرف بكفره بالتقليد، وإيمانه بالمنهج الفكري والتجديد، وستكشف المجالس الوردية التي حررها الباحث الألمعي سلام شماع عن عالم مفكر، مستقل، يؤمن بمعرفته ويدافع عن رؤيته..

إنه الفيلسوف الراحل علي الوردي ...
إن شهرة علي الوردي لا ترتبط بمكانته ومنصبه أو نجوميته، بل بملاكمته ومنازلته واستبساله في مقارعة ماشان من طرائق التفكير، والمحاكمات العلمية، وسعيه لإلقام الحجر في فم كل مقلد غافل .
المجالس الوردية ليست أروقة علمية روتينية، تعلم الناس الكفر بالفكر، والإيمان بالتلقين ورفض المعرفة والقبول بالبلاهة والاستحمار، بل المجالس الوردية تخلص الناس من الارتهان إلى البؤس والشقاء، الذي يجره الخنوع أمام راكد أو وافد .
كما أن مجالس الوردي ليست كراريس وورقات مدرسية هزيلة، بل المجالس مجابهة ثقافية واستقامة فكرية وفروسية معرفية .
ومادام غالب العرب لايبذلون أي جهد ليتداركوا ويدركوا أن عين الخلل هو في الزواج المؤبد من العرف، واغتيال الثقافة والفكر، وأن الأيدي التي تنهال عليها بالضرب من هنا وهناك والأقدام الغازية التي تطئ مدنها، إنما سببها الرئيس عدم إعمال الفكر الذي يمكن من اكتشاف السنن البنائية، التي تؤسس لمجتمعات غير مستعبدة، لا تستسلم ليوتوبيا أو طوباوية أو إكراه أو تكون ممزوجة مشوهاً لشخصية غير متوازنة، وتؤمن أن الفكر السبيل الوحيد للتحرر والنهوض .
رحم الله الوردي العقل العاقل وأجزل الله مثوبته وسكب الله عزه ورعايته ورضاه على تلميذه النشمي سلام الشماع .

علاء الدين آل رشي.
المدير الإعلامي في مركز الناقد الثقافي.


978-9933-431-21-1



الوكيل الحصري المعتمد للتوزيع في الإمارات العربية المتحدة



الناقد لا يمكن صناعته ولا يمكن استيراده. إنه يولد بعينين مختلفتين ويرى العالم رؤية خاصة. أما الباقون فيولدون في الغالب مثل صغار القطط. بأفواه مفتوحة قادرة على العض. ويولدون دائما برباط عنق بدل المخالب

[الصادق النيهوم. "كلمات الحق القوية"]